

مكتبة الاسباني
ميكال دي أونامونو



الخيال الترتولا

ترجمة: علي جبار

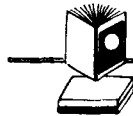
روايات مالية « ٣٩ »

الحالة تولا

للكاتب الإسباني
ميكال دي أونامونو

الخيال الترتولا

ترجمة: علي جبار



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٢

العنوان الأصلي للكتاب :

LA TIA TULA

Miguel de Unamuno

الخالة تولا = La Tia Tula / ميكال دي أوتامونو ؛

ترجمة علي جابر . - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٢ . -

١٤٤ ص ؛ ٢٤ سم . (روايات عالمية ؛ ٣٩) .

١ - ٨٦٣ أون خ ٢ - العنوان ٣ - العنوان الموازي

٤ - أنامونو ٥ - جابر ٦ - السلسلة

مكتبة الأسد

الإيداع القانوني : ع - ٩٤٥ / ١٠ / ١٩٩٣

المقدمة

ما يمكن الفارسي أن يستخلص من الروايات

كان لأحدهم أخ في مثل سني تقريبا ، وهو من كنت أحبه جداً شديداً ، مع انني كنت أحب الجميع ، والجميع كانوا يحبونني . كنا نجتمع معا نقرأ سير القديسين ، وكان يروونا في ما كنا نقرأه عنهم من أن الغم والمجد يلازمانهم دائماً ، وقد يحدث أن نقضي مدة طويلة ونحن نتحدث في هذا ، كما كان يحلو لنا أحيانا كثيرة أن نردد كلمة دائما ، دائما ، دائما . وبسبب ترديد ذلك في صغري تعبد في نفسي بحمد الله صراط الحقيقة . وقد أدركت أن من المستحيل الذهاب الى حيث أستشهد في سبيل الله ، وقررنا أن نسلك سبيل النساك ، وعزمنا أيضا على أن نقيم صومعة في أحد الحقول فكنا نضع الحجر فلا تلبث أن تسقط فوقنا . وهكذا تعذر علينا أن نجد حلا لرغباتنا . وقد قوى ايماني الآن أن رأيت أن الله سرعان ما منحني ما أضعته بيدي .

* * *

أذكر أنني كنت في حوالي الثانية عشرة من عمري ، أو أقل بقليل ، عندما ماتت أمي . ولما بدأت أدرك ما فقدته ، ذهبت الى مثال

« لسيدتنا » وتضرعت اليها ، والدموع تملأ عيني أن تصبح أُمي .
وبدا لي ، وان كان ما فعلته يعد ضرباً من السداجة اني في كل ما
توجهت به الى العذراء العالية الشأن كنت أجدها بجانبني . والخلاصة
فقد جذبتني اليها .

« من الفصل الأول من حياة الأم المقدسة »

« تريزايسوع » كتبه بيدها بناء على رغبة معرفها .

تبارك الله دائماً لما منحك من نعمة اذ حباك زوجة توفر لك الراحة .
أهنتك كثيراً ، وانه لما يعتريني وجودها لديك . وانني كثيراً ما
أقبل يدي السيدة (دونيا ماريا) عدة قبلات ، ولها هنا عدد من مراكز
العبادة . وكثيراً ما تمنينا أن نهأ برؤيتها ، ولكن اذا كان سيتم ذلك
وكان عليها ان تقوم بما هنا من الأعمال ، فاني أفضل لها أن تنال الراحة
هناك على أن اراها تشقى هنا .

« من رسالة بعثت بها الأم المقدسة والحالة (تريزايسوع) من
(آفيل) الى ابن أختها (لورنزو دي سييدا) بتاريخ (١٥ كانون
ثاني عام ١٥٨١) الذي كان في الهند في البيرو حيث تزوج من (دونيا
ماريا دي هينوخوسا) التي هي السيدة (دونيا ماريا) التي يتحدث
عنها » .

في الفصل الثاني من الحياة السالفة الذكر تقول الأم المقدسة
(تريزايسوع) انها كانت مولعة بقراءة كتب الفروسية . كتبها ذات
منحى آهي - وفي احدى تراتيل تسابيحنا أسميناها (كيوخوتيسا) .

« ما خلفته اسبانيا الخالدة من المعتقدات السماوية »

« التي هي غايتها . لا وجود الا للأبدي . الله أولاً شيء » .

ما قد يتوهمه بعضهم فارقاً بين القديسة (تريزا ، ودون كيخوتي)
هو ان هذا الفارس - خال ، خال ابنة الأخت الخالدة ، هو انه كان
سخيفاً وألعوبة ومهزلة الآباء والأمهات ، والخدمات ، والملكات .
ولكن ، هل نجت القديسة (تريزا) في مثل هذه المواقف ؟ ألم يسخروا
منها ؟ ألم ير بعض الكيخوتيين في أيامنا هذه ، وذوي النفوس السخيفة
سخافة في مغامراتها الفروسية المتجولة وأعمالها ، وحياتها ؟

لا يتوهمن القارئ مما مر ان ما سيأتي ، وسيراه ، ويقراه سيكون
تعليقا على حياة قديسة اسبانيا . كلا . لا شيء من هذا . فنحن حين
شرعنا في العمل لم نفكر في (تريزيسوع) ولا في (دون كيخوتي) .
كان ذلك بعد فراغنا منه ، وعلقت بالنفس اثار أبانت لنا جدة في
هذا النموذج حيث اكتشفنا جذور هذه الرواية النيقولية . لقد بدا
خافيا علينا مغزاه العميق عندما باشرنا العمل . لم ننبين شيئا الا فيما
بعد ولذا أجرينا حوله تعليقا وجدانيا نزيها ، فتبينت لنا الجذور
(التريزية والكيخوتية) التي هي واحده . .

ترى هل هذا كتاب فروسية كما يرغب بعض القراء أن يتصوره ...
قد يبدو لبعضهم انه مغالاة في حياة القديسين . انه على كل حال رواية ،
وهذا ما نؤكد له .

لم تكن تلك نظريتنا ، ولكنها كانت نظرية صديق فرنسي -
زيادة في الدلالة - رأى ان الالهام - ومعذرة - في كتابنا « ضباب »
مستمدة جذوره من كتاب (الحياة حلم) (لكالدرون) . ولكن هنا ،
فاكتشفنا نحن هو ان جذور الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ هي
(كيخوتية وتريزية) . ولا يعني هذا بالطبع ، ان ما يعرض هنا لا يمكن
أن يكون قد حدث خارج اسبانيا .

* * *

قبل أن أنهي هذه المقدمة أرغب في أن أدلي بملاحظة أخرى قد يجوز أن تبدو لبعضهم ضربا من محاولة في فقه اللغة ، وهي ليست سوى علم نفس بكل بساطة . وهل علم النفس غير ضرب من فقه وعلم اللغة ؟

* * *

الملاحظة هي انه لدينا كلمة ابوي ، وابوة المشتقتان من (بانز) اب . وأمومي ، وأمومة المشتقتان من (ماتر) أم ، وأبوي ليس مساويا لأمومي ، ولا أبوة مساويه لأمومة . ومن الغريب أن توضع كلمتا أخوي ، وأخوة المشتقتان من Frater أخ وان لا يكون لدينا Sororal - Sororidad ، المشتقتان من Sorar أخ . في اللغة اللاتينية يوجد Sorarius أخت ، والفعل Sorariare نشأ وربني معا .

قد يقولون أن Soraridad معادلة لـ Fraternidad

ولكننا لانعتقد ذلك ، فلو كان في اللغة اللاتينية أصل كلمة ابنة يختلف عن كلمة ابن لوجب علينا أن نفرق بين البنوتين .

أخوة أطلقت على (أنتيجونا) الرائعة قديسة اليونان في أزمانها الضالة ، وابنة (أديبو) التي استشهدت حبا بأخيها (بولينيسيس) ، ولأنها صرحت باعتقادها بأن القوانين الوجدانية الأبدية التي تسود عالم الأموات ، عالم الخلود ، ليست كالتالي يضعها الظالمون الطغاة ، امثال (كريونتي) .

عندما اتهم (كريونتي) ابنة اخيه (انيتجونا) في مأساة (سوفوكلس) بأنها اخلت بالقانون السامي عندما أقامت احتفالا جنائزيا لأخيها الذي قتل أخاه ، دار بينهما الحوار التالي :

(أ) لا يستبجح الاحتفاء بمن كان مشاركا في الأحشاء .

(ك) ألم يكن ذاك الذي مات قتلا مشاركا لك في الدم ؟

(أ) : مشاركا من ناحية الأب والأم ...

(ك) : وكيف تكرمين هذا المارق ؟

(أ) : ما كان الميت ليقول هذا .

(ك) : ولكنك تكرمينه كما تكرمين المارق .

(أ) : ألم يكن الميت عبده وإنما كان أخي .

(ك) : كان هذا يدمر الأرض ، وذاك كان يدافع عنها ...

(أ) : ومع ذلك فالعالم الآخر يحب المساواة ازاء القانون ...

(ك) : كيف يكون التساوي بين الحقير والشريف ؟

(أ) : من يدري اذا كانت هذه القيم محترمة هناك .

(أنتيجونا . أشعار ٥١١ - ٥٢١) .

ألا يكون الذي سهل (لأنتيجونا) اكتشاف هذا القانون الخالد ،
وهي المعروفة من سكان (طيبا) ومن خالها (كريونتي) انها فوضوية ،
ألا يكون ذلك قرارا رهيبا من (الهادو) أخت والدها (أديبو) اللحمية
التي شغلت وأياه Sonaridad أخوة أيضا .

بادرة الأخوة (Soraora) التي أظهرتها (أنتيجونا) حين
دفنت جثمان أخيها المتروك بلا دفن ، وانقاذه من نقمة خالها (كريونتي)
رأى فيها هذا بادرة فوضوية . « ما من عمل أسوأ من الفوضى »
- قال الطاغية مصرحا . (أنتيجونا . شعر ٦٧٢) فوضى ؟
حضارة ؟

(أنتيجونا) الفوضوية كما يراها خالها (كريونتي) الطاغية ،

هي أنموذج من الرجولة ، ولكن ليس من الانسانية . (أنتيجونا)
أخت أبيه (أديو) ، وبسبب ذلك فتكون عمه أخيه (بولينيسيس)
تمثل الخدمات الدينية ، الديانة المنزلية ، البيئية ، بازاء المواطنة السياسية
الظالمة ، الظلم المدني ، وربما أيضا الإلفة بالنسبة للحضارة . ولكن هل
يمكن الحصول على الحضارة دون أن نمارس التآلف قبل ذلك ؟ هل
تقوم مدنية أو حضارة على غير اساس في التآلف والعمل ؟

نتحدث عن الوطن ، وعن الأخوة العالمية ، ولكن أليس ضربا من
التفقه في اللغة الظن ان نجاحاً قد يقوم على غير المادة والأخوة . قد
تقع حروب بربرية مدمرة ، وكوارث غيرها بينما تكون اليعاسب
ملتفة حول الملكة لتأكل العسل الذي لم تصنعه تلك التي تسيطر على
القفير .

حروب ؟ أول عمل حربي قام ، بناء على ما روتته لنا الكتب التي
نسميها مقدمة ، هو مقتل هاييل من قبل قابيل . كان موتا أخويا ،
بين أخوين . أول عمل أخوي . وتقول سفر التكوين ان قابيل هو
قاتل أخيه وكان أول من شيد مدينة أسماها باسم ولده - وكان من اخته -
عناق (اينوك) « سفر التكوين ١٧ » وفي تلك المدينة ينبغي أن تكون
قد بدأت الحياة المدنية ، والسياسية ، والأهلية ، والحضارية . ان عمل ،
كما ترى ، مصدره قاتل أخيه . وبعد ذلك باجيال قال (لو كانوا)
وهو اسباني عن الحروب بين (سيزار) و(بومبيو) أنها أكثر من مدنية . -
قال ذلك في شعرد الأول فرساليا - يريد أن يقول انها أخوية . الحروب
التي هي أكثر من مدنية هي أخوية .
سمى (أريسطوطاليس) الرجل (زون بوليتيكون) مبالغة في
كلمة سياسي ، وهذا يعني حيوان سياسي وهذا ليس ترجمة - حيوان

يحاول ن يعيش في المدن ، أو في بيوت مقامة على الأرض ذات دعائم ، وهذا هو الرجل ، وفوق كل هذا « الذكر » . حيوان داجن ، مواطن أخوي ... وقاتل أخيه . ولكن هذا الحيوان المدني ألا ينبغي عليه أن يطهرَ بخدمته منزليه ؟ ولكن المنزل ، المنزل الحقيقي ، ألا يوجد في خيمة الراعي الضال التي يقيمها حيثما اتفق وعلى الطرق . لقد رافقت (أنتيجونا) والدها الأعمى الضال في طرق الصحراء الى أن توارى في (كولونا) . تعالها من مواطنة أخوية قابلية اذا لم تكن هنالك الفة أخوية ...

ينتقل أساس المواطنة ، والالفة من يد ليد ، من أخوات الخالات ، أو من زوجات ذات نفوس عالية امثال (ايساج) السلاميه التي يحدثنا عنها كتاب الملوك في الفصل الأول من الكتاب الأول ، تلك الفتاة التي حملوها الى الملك الشيخ داؤد الذي كان على وشك الموت لكي تمسك عليه الحياة ، اذ تغطيه وتدفته في فراشه وهو نائم . وقد ضحت (ايساج) بأمومتها وظلت عذراء لأجله ذلك لأن داؤد لم يعرفها، وكانت سببا في أن يقوم سليمان ابن خطيئة داؤد مع (بتزابي) الزانية بقتل (ادونياس) أخيه ابن داؤد (وهاجيت) لأنه أراد أن يتزوج (ايساج) آخر ملكة كانت مع داؤد ظناً منه بأن هذا يورثه ملك داؤد .

لكننا سنخصص (لايساج) هذه ، وما كان منها، وما عنته ، كتاباً كاملاً سوف لن يكون بالطبع رواية ولا نيفولا .

والآن سيكون بوسع القارئ الذي سيقراً هذه المقدمة - التي لا حاجة لها لفهم ما سيأتي - أن يستعلم من الحالة (تولا) اذا كانت قد عرفت شيئاً عن القديسة (تريزا ، ودون كيوخوني) ، كما انها قد تكون لا تعلم شيئاً عن (أنتيجونا) اليونانية ، ولا (ايساج) .

في كتابي (هابيل سانتشس) حاولت أن أنقب في زوايا ومخابئ
القلوب ، وسرايب الأرواح حيث لا يرغب الكثير من أبناء الفناء
في الوصول اليه . يظنون ان في هذه السرايب موتى ، وان من الأفضل
عدم زيارتهم . ومع ذلك فهؤلاء الموتى هم الذين يحكموننا . تلك هي
ورثة (قابيل) . وفي هذه الرواية حاولت أن أنقب في سرايب
ومخابئ أخرى . وحيث أنني لم أعدم من قال لي ان ذلك عمل غير
انساني ، فسوف لن أعدم من يقول مثل ذلك بمعنى آخر . بدا ذلك
لبعضهم غير انساني لأنه رجولي ، وأخوي . وقد يبدو له هذا نسائي
وأخوي . Sorarial دون أن يكون بوسعنا أن ننكر أن الذكر
يرث النزعة النسائية من أمه ، والمرأة ترث الرجولة من أبيها .
وهل العسوب لا يحمل جانباً من النحلة ، وهذه لا تحمل شيئاً من
العسوب ؟ واذا شئت ألا يوجد نحلات رجولية ، ويعاسب نحلية .

وهذا يكفي فأنا لا أرغب في وضع رواية على رواية .

في مدينة (سلامانكا) يوم زواج سيدتنا .

عام الرحمة الف وتسعمائة وعشرون .

* * *

- ١ -

روايته

أخى الزتولا

الى (روزا) وليس الى أختها (جرتروديس) التي كانت تخرج وياها من البيت بصورة دائمة ، كان (راميرو) يوجه نظراته المتعطشة ، أو على الأقل هكذا كان يعتقد كل من (راميرو) (وروزا) عندما يتقابلان .

كانت الأختان اللتان كانتا ترافقان دائما ، وان كانتا غير متحدتين دائما ، تشكلان زوجا يبدو انه ان يفترق ، وأنهما من درجة واحدة . كان جمال (روزا) الرائع المثير ، زهرة من اللحم تفتتح أمام السماء والنور والهواء هو الذي يسترعي اليهما الانظار لأول وهلة . الا ان عيني (جرتروديس) الجادتين هما اللتان كانتا تقفان حاجزا أمام فضول العيون التي كانت توجه نظراتها اليهما . وقد يحدث أن يصوغ بعضهم عبارات نابية يرغب في توجيهها اليهما الا انه كان يقف عند حده اذ يصدده ما يراه في عيني (جرتروديس) من الوقار الصامت ، وكأنه يقول له : « مع هاتين لا يجوز اللعب » .

واذا ما تأملنا مليا وعن قرب فان (جرتروديس) كانت أكثر اثاره للميل والرغبة في الاستمتاع ، في حين كانت أختها (روزا)

تنشر أمام النور والهواء جمال جسدها وغضارته ونضارته . لقد كانت أشبه بصندوق مغلق ومختوم يتوقع العثور فيه على كنز من الحنان ، واللذاعة الخفية .

ولكن (راميرو) الذي كانت عيناه تحملان روحه انه يرى غير (روزا) واليها وحدها انجبه كليا .

قالت هذه ذات يوم لأختها : - أتدرين ان (راميرو) قد كتب لي ؟

فأجابتها أختها قائلة : - أعرف ذلك . وقد رأيت الرسالة .

- وكيف رأيتها ؟ وهل تتجسسين علي ؟

- وهل يمكن أن لا أراها . أنت تعلمين اني لا أتجسس على شي .

وأنت قلت ما قلت كي تقولي شيئا ...

- الحق معك يا (تولا) . سامحيني .

- أجل . أكرر قولي مرة أخرى . أنت كذلك . أنا لا أتجسس .

ولكني لا أكم شيئا أبدا . لقد رأيت الرسالة .

- لقد علمت . لقد علمت .

- لقد رأيت الرسالة ، وكنت أتوقع ورودها .

- حسن . وما هو رأيك في (راميرو) ؟

- أنا لا أعرفه .

- ولكن ما من حاجة لمعرفة الرجل كي تكون الفتاة رأيا حولها .

- أجل . أنا أحتاج .

- ولكن ، كما يبدو للعين .

- حتى ولا هكذا أستطيع أن أكون رأيا حولها دون أن أعرفه .

- أليس لك عينان في وجهك ؟
- ربما ليس لي كما تعتقدن ... فأنا كما تعلمين قصيرة النظر ...
- ادعاء فارغ . ولكن ، تألمي انه شاب نشيط .
- هكذا يبدو .
- وجذاب .
- حسبه أن يكون جذابا بالنسبة لك .
- ولكن هل تظنين انني أجبتة موافقة ؟ أي بنعم ؟
- أنا أعلم انك ستقولين ذلك له في النهاية ، وهذا يكفي .
- لا يهم . وينبغي ان ادعه ينتظر الى أن يضجر .
- ولماذا ؟
- ينبغي اعلاء الشأن .
- لن تعلي شأنك بمثل ذلك يا (روزا) . وهذا الدلال قبيح جدا .
- بشكل لو أنك أنت ...
- لم يتوجه اليّ .
- ولو انه توجه اليك ؟
- لا يسأل عما لم يكن . عما لم يحدث .
- ولكن لو انه توجه اليك أنت ، فيما كنت ستجيبين ؟
- ألم أقل انه يبدو شابا نشيطا ، وجذابا ، وبسبب ذلك كنت انصرفت لدراسته .
- وأثناء ذلك لو جاءت أخرى ...
- هذا ممكن الوقوع .
- اذن يا عزيزتي بوسعك أن تستعدي .

- أجل . لكي أكون خالة
- وكيف خالة ؟
- خالة لأولادك يا (روزا)
- آه ، ما أغرب طباعك . – قالت ذلك بصوت متكسر .
- هيا ، يا (روزا) لا تكوني هكذا . – قالت ذلك ثم طبعت قبلة على خدها .
- ولكنك قد تعودين ...
- كلا . لن أعود . كلا .
- حسن ، وبماذا أجيبه ؟
- قولي له ان نعم .
- ولكنه قد يظن انني سهلة الانقياد جدا ...
- اذن اجيبه بالرفض .
- ولكن ...
- اذا كنت ترينه نشيطا وجذابا ، فقولي نعم ، واقلمي عن هذا الدلال لأنه قبيح . قولي له نعم ، فقد لا يكون من السهل أن تحصيلي على ما هو أفضل . لابأس (براميرو) ، فهو ولد وحيد .
- أنا لم أقل شيئا من هذا .
- ولكن أنا ذكرت ذلك . والأمر واحد ...
- ولكن ، ألا يقولون انني أفتش عن عريس ؟
- وحقا ما يقولون .
- مرة أخرى ، يا (تولا) ؟

— للمرة المئة أقولها . ألا تبحثين عن عريس ؟ ومن الطبيعي أن تحصيلي عليه . اذن لماذا خلقتك الله جميلة جذابة هكذا ؟

— كلا . جلفة .

— أنت تعلمين انني لا أبحث عن الأجلاف . وسواء بدا لنا قبيحاً أم جميلاً فان قدرنا هو اما الزواج أو الدير ، وأنت لست معدة لكي تكوني راهبة . لقد سواك الله للدنيا وللعائلة لكي تكوني أم عائلة ... لا خادمة للتماثيل . قولي له اذن . نعم .

— وأنت ؟

— وأنا ؟

— وأنت بعدئذ ...

— دعيني أنا .

وفي اليوم التالي لهذا الحوار الذي دار بين الأختين كانت أواصر المحبة قد توطدت بين (روزا وراميرو) وكان هذا سببا في أن تعيش (جرتروديس) حياة الوحدة .

كانت الأختان تعيشان معا اذ كانتا يتيمتين من الأب والأم منذ صغرهما ، وكانتا تسكنان مع خالهما وهو كاهن الا انه لم يكن ينفق عليهما اذ كانتا تملكان ملكية تفي بما فيه الكفايه لأن تكونا في سعة من العيش . لكنه كان يلقي عليهما مواعظ صالحة عندما كانوا يجلسون حول المائدة لتناول الطعام ، ويترك لهما أمر تسيير أحوالهما الطبيعية . كانت تعاليمه مستقاة من الكتب التي كان يقتبس منها مواعظه المقتضبه .

كان (دون بريميتيفو) يقول مخاطبا نفسه : « لماذا أتدخل في

ميولهما الخاصة ؟ الأفضل أن لا أتحدث كثيرا اليهما في مثل ذلك لأنه يفتح عيونهما ... يفتح عيونهما ؟ ان العيون مفتوحة ، وبصورة خاصة ، عيون النساء . نحن الرجال لا نفقه شيئا من هذه الأشياء . وعلى الأخص نحن رجال الدين . كل ما تقوله لنا الكتب مجرد ترهات . ثم هذه ، (تولا) تخيفني . . . أثناء وجودها تنعدم جراعتي ... أصبح لا أجرؤ ... وأي أسئلة تسألها هذه الصغيرة . وعندما توجه اليّ نظرات جادة ، جادة... من تلك العينين الحزينتين - عيني أختي ، وأمي خلدتهما الله في جنانه . تلك النظرات الحزينة التي تتغلغل في القلب ... تلك النظرات الجادة الشديدة الحد ولكنها بمؤخر عينيها تبسم ، وكأنها تقول لي : « لا تكثر من السخافات يا خال » . تلك الطفلة الشيطانه . اني لا أزال أذكر اليوم الذي أصرت فيه على أن ترافق أختها لتسمع تلك الموعدة . يا لها من فترة مرت بي يا يسوع القدسي . كل شيء كان يحملي على أن أصرف نظري عنها كيلا تقطع علي الموعدة . ولكن لا . فقد كانت تجتذب عيني مثلما كان يحدث لي مع أمها المقدسة أختي ، ومع أمي المقدسة أحلها الله في أمجاده . لم أقوط على أن أعظ كما أهوى في حضورهما ، ولذا قلت لهما أن يتجنبنا حضور مواعظي . كانت أمي تحضرها ولكن متخفية دون أن تنبني بذلك ، وتقف مستترة بالعامود كي لا أراها ، ولا تأتي على ذكر أي شيء عن الموعدة . ومثلها كانت تفعل أختي ، لكنني كنت أعرف ما كانت تفكر به مع أنها عميقة الايمان بالمسيحية . أنا أعلم أنها كانت تقول : « هراء رجال » . وهذا ما تفكر فيه هاته الصبية . هذا ما أنا واثق منه . كلا ، كلا . أعظ أمامها ؟ أنا ؟ أنصحها ؟ لقد أفلتت منها ذات مرة عبارة « هراء رجال » . لم تكن موجهة لي ، لكنني أدركها ...

كان السيد المسكين يشعر باحترام عميق لابنة اخته (جرتروديس) .
وكان يدرك ان المعرفة جاءت الى فرعه عن طريق النساء ، وان أمه
كانت جرثومة الذكاء في البيت الذي نشأ فيه . وان أخته كانت كذلك
في بيتها بعد ذلك . وبالنسبة لابنة أخته الثانية (روزا) فحسبها رفقة
أختها دليلاً وحامية . ولكن : « تبارك الله ما أروع الجمال الذي خصها
الله به - هكذا كان يقول الشيخ . هذه الفتاة اذا لم تتزوج زواجا
ممتازا ، فيكون شباب اليوم ليس في وجوههم عيون » . وذات يوم
وقد ظنت (جرتروديس) وحدها مع خالها على المائدة قالت له بعد ان
ذهبت (روزا) متظاهرة بتوعك صحتها : - أرغب في أن أنقل اليك
خبراً هاماً جداً يا خالي .

- هاماً جداً ... هاماً جداً ... - قال المسكين وقد توهم انه
تبين في مؤخر عيني ابنة أخته بسمة ساحرة .
- أجل هاماً جداً .

- حسن ، قولي كل ما تعلمينه يا ابنتي ، فنحن الآن منفردين
لتقديم النصائح .

- القصة هي ان (روزا) خطيبا .

- ولا شيء غير هذا ؟

- واكنه خطيب جاد يا خالي .

- هيا اذن لنعقد لهما الزواج .

- بانطبع .

- وأنت ، كيف تريته ؟

- حتى الآن لم تسألني من هو .

– وماذا يهمني . فقلما أعرف أحدا ؟ وأنت كيف تربينه ؟
أجيبني .

– وأنا أيضا لا أعرفه .

– ولكن ألا تعلمين من هو ؟

– أجل ، أنا أعرف اسمه والى أي عائلة ينتمي و...

– يكفي . كيف تربينه ؟

– انها صفقة جيدة (لروزا) . وسيتحابان .

– ولكن . هل هما غير متحابين حتى الآن ؟

– ولكن ، هل تظن يا خالي ان الحب يبدأ أولا ؟

– ولكن هكذا يقال يا صغيرتي . وان الحب يقع بسرعة البرق ...

– كلام هذا يا خالي .

– هكذا اذن . يكفي أن تقوايه أنت .

– (راميرو) ... (راميرو كوادرادو) ...

– ولكن . هل هو ابن (دونيا فينسيا) ؟ انتهينا . لا مجال بعد ذلك

للكلام .

– الى (راميرو) يا خالي صوبت (روزا) نظرات عينيها ، وهي

تظن انه أحبها ...

– وسيكون ذلك (يا تولا) ، سيكون ذلك .

– هذا ما أتوقعه يا خالي . سيكون ذلك . فهو رجل خجول

وصادق الكلمة ، وسيقع في حب تلك التي وعدها ، وأظن أنه ليس

من أولئك الذين يتراجعون عن وعودهم .

– وهي ؟

- من ؟ أختي ؟ ستقع هي كذلك .
- أنك لتعرفين أشياء أكثر من (سان اغوستين) يا بنيتي .
- هذا لا يُعلم يا خالي .
- اذن فليتزوجا . وسأباركهما وقضي الأمر .
- فأنبدأ . يجب أن يتزوجا عاجلا قبل أن يتراجع ...
- ولكن هل تخشين أن يتراجع الفتى ؟
- أنا أحاذر الرجال دائما يا خالي .
- أولا تحاذرين من النساء ؟
- مثل هذه المخاوف يمكن توقعها من الرجال . نسيت أقصد الغض من شأن الجنس القوي ... ألا يقال هكذا ؟ أنا أقول ان الثبات والمتانة هما في جانبنا .
- لو ان جميع النساء كن مثلك يا صغيرتي اذن لكان في مقدوري أن أصدق هذا القول . ولكن ...
- ولكن ، ماذا ؟
- انت يا (تولا) مستثناة .
- لقد سمعتك يا خالي تقول أكثر من مرة ان الاستثناءات تؤكد القواعد .
- انك لتذهلينني يا صغيرة .. حسن ستزوجهما ولو كان ليس مخافة أن يتراجع هو ... أو هي ...
- وتجلى في نظرات (جرتروديس) ظل عاصفة ، ولو انه كان باستطاعته أن يقرأ في ذلك الصمت اذن لتبين أن في مطاوي ودهاليز روحها يتردد صدى معلنا « أو هي » ...

ولكن ما الذي جد (لراميرو) يا ترى في علاقاته الشكلية مع (روزا) ، اذ قد أصبح على وشك أن يدخل البيت ؟ يكثر من الامهال والبرودة في علاقاته .

- اسمعي يا (تولا) . أنا لا أستطيع ان أفهمه . كل يوم ازداد جهلا به . يبدو انه دائما مشغول ، وكأنه يفكر في شيء آخر . أو شخص آخر - من يدري ؟ أو هو كمن يتوقع مباغته . وعندما أحده وأستعجله يبدو كمن لا يرغب في الأمر ، في النهاية التي يجب أن تبلغها علاقاتنا ، ويتظاهر وكأنه لا يسمع ، أو كأنه يخاطب امرأة أخرى ...

- ذلك لأنك تخاطبيه كمن لا ترغب في الأمر . خاطبيه كالراغبة .

- هو ذلك ، وأن يعلم اني أستعجل أمر زواجي .

- ليظن ماشاء . أو ليس هذا الواقع ؟

- ولكن أتصورين يا (تولا) اني متحمسة لكي أتزوج ؟

- أتحيينه ؟

- لا علاقة لمثل هذا ...

- أتحيينه ، قولي .

- ولكن اسمعي ...

- ولكن لاجال لا سمعي ... هل تحيينه ؟ قولي لا أو نعم .

فأطرقت (روزا) برأسها ونظرها الى الأرض واصطبغ وجهها

بحمرة الخجل ، وغمغمت قائلة بصوت متكسر باك :

- ما أغرب أطوارك يا (تولا) تقفين موقف المعرف .

فأخذت (جرتروديس) بأحدى يدي اختها ورفعت بالثانية رأسها وصوبت نظرتها الى عينيها ، وقالت لها :

– عشنا لوحدنا يا أختي .

– والحال ؟

– لقدقلت عشنا لوحدنا.نحن النساء عشنا لوحدنا . وخالنا المسكين

قديس ، لكنه قديس كتب . وهو على كل حال رجل ، وان كان كاهناً .

– ولكن صرحي ...

– وهو بسبب ذلك ربما كان قليل المعرفة . وفضلا عن ذلك

فقد ينسى . وهذا الواقع . نحن نعيش وحدنا كما قلت لك . والآن

ما يجب أن تفعله هو أن تعترفي هنا . اعترفي لنفسك . هل تحبينه ؟

أكرر سؤالي .

فشرعت (روزا) المسكينة تبكي .

– هل تحبينه ؟ – ارتفع صوت الأخت للمرة الثانية يقول –

وتوهمت (روزا) ان ذلك السؤال الملحق الذي يبدو انه آت

مما وراء الحياة ، حياة الطهارة المشتركة . وانه صوتها هي ، أو لعله

صوت أمهما أيضا .

– أجل . أعتقد انني سأحبه ... كثيرا ... كثيرا . – قالت ذلك

بصوت خفيض وهي تجهش بالبكاء .

– أجل ستحبينه . وهو سيحبك أكثر .

– وكيف عرفت ؟

– أنا أعلم أنه سيحبك

- اذن لماذا يبدو لاهيا عني . لماذا يتهرب من مواجهة الحديث عن الزواج ؟
- سأحدثه بذلك يا (روزا) ، دعي أمره لي .
- أنت ؟
- نعم أنا . هل من غرابة في الأمر ؟
- ولكن ...
- أنا لا يجبهني الخوف الذي يصدك
- ولكن ، سيقول اني أتلهف للزواج .
- كلا ، كلا . لن يقول ذلك — سيقول اذا طاب له ان يقول اني أنا التي يوافقني أن تتزوجي ليسهل السبيل أمام طالبي ، أو لكي أصبح وحدي الأمرة الناهية في هذا البيت . وكما تعلمين فكلا القولين مجرد هراء . ليقبل ما يشاء ولكني سأمهد السبيل وأزيل العقبات .
- فألقت (روزا) نفسها بين ذراعي أختها التي أسرت لها في أذنها :
- واخيراً عليك أن تزدادي حبا له . أليس كذلك ؟
- ولماذا تقولين لي هذا القول يا (تولا) ؟
- لأن هذا هو واجبك .
- وفي اليوم التالي حين جاء (راميرو) لزيارة خطيبته وجد نفسه مع الأخرى . مع أختها . فتجهم وجهه ، ووقف مترددا ، فالنظرات الجادة الحزينة التي تنطلق من عيني الفتاة جمدت الدم في قلبه .
- فقال يسأل دون أن يُسمع : — أين هي (روزا) ؟
- لقد خرجت (روزا) من البيت ، والآآن أنا التي ستحدث اليك .
- أنت ؟ — قال بشفتين مرتعشتين .

- أجل . أنا .
- تبدين خطيرة يا آنستي . — قال ذلك جاهدا في ان يبدو ضاحكا .
- يقولون ان هذا الخطر ولد معي . يؤكد خالي انني ورثته عن أمي ، أخته ، وهي ورثته عن جدتي ، أمه . هذا ما لأدريه كما لا أعيره كبير أهمية . الأمر الذي أعرفه هو ان الأشياء ينبغي أن تكون بسيطة مستقيمة ، وبدون خداع .
- لماذا تقولين ذلك (يا تولا) ؟
- ذلك لأنك تنهرب من حديث الزواج مع أختي . هيا ، قل ، لماذا ؟ فعلت حمرة الحجل وجه الفتى ، وشعر وكأن طعنة مفاجئة قد أصابته .
- أنت طلبت أن تكون لك علاقات معها لغاية شريفة كما يقول السذج .
- (تولا) .
- (لا تولا) ولا خلافها . أنت أقمت علاقات معها لتكون لك زوجة ووالدة لأبنائك ...
- ولكن ، أنت تستعجلين الأمور ... ثم اجتهد مرة أخرى في أن يبدو ضاحكا .
- يجب أن تستعجل الأمور لان الحياة قصيرة .
- تقولين الحياة قصيرة ونحن على أبواب الحادية والعشرين من عمرنا .
- هي أقصر مما تظن . حسن اذن . هل تنوي أن تتزوج (روزا) ؟
- قل لا ، أو نعم .

— ولكن أي شك في ذلك . — وحين قال ذلك ارتعش كامل بدنه .

— ولكن اذا كنت تنوي الزواج منها فلماذا تواصل التأجيل ؟
— مازلنا صغار السن ...
— ذلك أفضل .
— يجب أن نختبر أنفسنا ...
— ماذا ؟ ما هذا ؟ وأي اختبار ؟ أتظن انك ستصبح أكثر معرفة بها بعد عام ؟ ذلك أسوأ ... وأسوأ .

— واذا فيما بعد ...
— ألم تفكر بهذا عندما طلبتها ، وقبل أن تدخل البيت ؟
— ولكن (يا تولا) ...
— (لا تولا) ولا خلافها . هل تحبها أم لا ؟
— أبوسعك أن تشكي في ذلك (يا تولا) ؟
— قلت لك (لا تولا) ولا خلافها . هل تحبها ؟
— الأمر واضح اني أحبها .
— اذن ستزداد حبا لها . ستكون زوجة صالحة لك . ستكونان خير زوجين .

— بنصائحك أنت ...
— ما من نصائح . حسبي أن أكون خالة طيبة .
وبدا على (راميرو) انه كان لفترة قصيرة مع نفسه وكمن يفتش عن شيء ، وأخيراً هتف بما يشبه اليأس قائلا :
— حسن يا (جرتروديس) سأصرح لك بكل الحقيقة ...

– ليس لديك من الحقائق ما تقوله لي – قالت تقاطعه بجدة –
لقد صرحت لي بأنك تحب (روزا) ، وانك مصمم على أن تتزوجها .
وما بقي من الحقائق ستقوله لها بعد الزواج .
– ولكن هنالك أشياء ...
– كلا . كلا . ما من شيء لا يقال للزوجة .
– ولكن (يا تولا) ...
– كلا . (لاتولا) ولا خلافها قلت لك اذا كنت تحبها فتزوجها .
واذا كنت لا تحبها فأنت هنا غريب في هذا البيت .
وخرجت هذه الكلمات باردة من فمها بينما ظل قلبها ساكنا ،
وأعقب ذلك صمت ثلجي والدم الذي كان من قبل هادئا انتشر وعلا
وجه الأخت . وأثناء هذا الصمت المبشر كانت تسمع ضربات قلبها .
وعينت حفلة العرس في اليوم الثاني .

– ٣ –

أقر (دون بريميتيفو) الزواج وباركه . بارك زواج (راميرو
وروزا) . ولم يبد السرور على أحد مثل (جرتروديس) لدرجة ان
ما ظهر عليها من السرور كان مفاجئة لعارفيها ، مع ان البعض رأى
فيه شيئا غير طبيعي .
وذهب العريسان الى بيتهما . وكانت (روزا) تطالب بوجود
أختها لكن هذه كانت تجيب ان الوحدة هي خير ما يقدم للمتزوجين
الجدد .
– ولكن يا حبيبي الأمر بالعكس . فأنا لم أتألم لبعذك مثل الآن .
لقد أدركت الآن حبي لك . وأخذت تعانقها وتقبلها .

– أجل ، أجل . – كانت تجيب (جرتروديس) وهي تبسم ابتسامة غامضة . لا بد انهأتك من شهود يرونها ، وهذا ينمىها ويضاعفها .
ومن حين لآخر كانت تزورها وتشاركهما على الغذاء . وكانت أختها تحتفي بها كثيرا وتظهر الحنو لها ولزوجها الذي كان يبدو خجلا أمام ابنة حميه .

– اسمعي . – قالت (جرتروديس) ذات يوم لاختها بمناسبة مظاهر الحفاوة والحنان – لا تظهرى نفسك غبية . يبدو وكأنك أنت التي ابتكرت حياة الأزواج .

وذات يوم رأت جرو كلب صغيرا فى البيت .
– وما هو هذا ؟

– انه جرو كلب يا حبيبتى . الا ترينه ؟
وتحتل مقعدا محترما . أتحين أن تربها ؟

– هذا صحيح . – قال (راميرو) موافقا .
– حسن ، وسنقلها من هناك .

– كلا يا حبيبتى . سأحتفظ بها ...
– أجل ، لتلعب بها ابنتك ...

– ما أغرب ما يخطر على بالك يا (تولا) ... قالت ذلك وقد أحمر وجهها .

– كلا . لك أنت تخطر الغرائب كقصة الجرو .

فهمت (روزا) محاولة التخلص من ذلك الحديث الذي أزعجها :
– وأنت أليس لديك لعبة ؟ هل أهديتها ، أم أتلفتيتها ؟

– فأجابت أختها بوضوح : كلا ، ولكنى أحتفظ بها .

– محفوظة حتى انى لم أتمكن من أن أراها أبدا ...

— ذلك لأن (جرتروديس) تحتفظ بها لنفسها . — قال (راميرو)
دون أن يدري ما قال .

— الله أعلم لماذا أحفظ بها . إنها تميمة لطفولتي .
كان (دون بريميتيفو) الطبيب أقل الجميع زيارات لمنزل العريسين
الجديدين . وكان يقول : « الحادي عشر لا يزعمج » .
وكانت الأيام تمر متشابهة في كلا المنزليين . وكانت (جرتروديس)
قد قررت أن تقلل من زياراتها لأختها ، إلا ان هذه كانت تأتي إليها
كلما مر يومان دون أن يتواجها .

— يالك من سيئة يا حبيبي . أو ان الجرو مازال يزعجك وجوده ؟
إذا كان ذلك هو السبب فسأطرده . لماذا تدعيني وحدي ؟

— وحدك ؟ وحدك (ياروزا) وزوجك ؟

— ولكن عليه أن يذهب لأعماله ...

— وكيف جاء ؟

— لقد عثرت عليه شريدا في الشارع ويكاد يكون على وشك
الموت ، فأشفقت عليه ، وجئت به الى هنا وأطعمته ، وعالجت ما
كان يؤلمه ، وها أنت تربيته هنا . قالت ذلك ثم شرعت تمسده له شعره
وتقبل ما بين عينيه .

— ولكن ، اسمي (ياروزا) . يبدو لي أنه يجب عليك أن تهدي
الجرو لأن وجوده قد يجرح ما يعد كارثة .

— أهديه ؟ ولماذا ؟ اسمع (يا تيتي) . — وعندما قالت ذلك ضمت
الجرو الى صدرها — تقول لي كي اطرده . الى أين ستذهب يا مسكين ؟
— هيا ، هيا لا تكوني طفلة . ولا تحمليه هكذا . الا يرى زوجك
مثل رأبي ؟

- طبعا متى قلت له ذلك . مادمت أنت العالمة ...
- دعك من هذه الأشياء . وتخلصي من هذا الجرو .
- ولكن لماذا ؟ أتعتمدين ان (راميرو) ستأخذ الغيرة ؟
- ما ظننت قط (ياروزا) أن الزواج يورث الحبل هكذا .
- وعندما جاء (راميرو) واطلع على المشادة التي دارت بسبب الجرو لم يجراً على الموافقة على رأي أي من الاثنتين ، بل قال ليست المسألة ذات أهمية .
- فقال (جرتروديس) : — كلا لا أهمية لها ، لكنها بالنسبة لبعضهم ذات أهمية قصوى ، اذ تتسم بسمات الطفولة . وحتى أكثر من ذلك (فروزا) خليقة بأن تحضر الى هنا تلك اللعبة التي مازالت تحتفظ بها منذ الصغر ، وقد أعطيت كل واحدة منا واحدة ، وهي خليقة بأن تضعها على مقعدها ...
- بالتأكيد فهي هناك في القاعة ، مرتدية ثوبها الفاخر .
- أو هو يبتكرها ...
- ولكن أظنين انه يعتمد تركي ؟ هل تعلمين شيئا ؟ قولي (ياتولا)
- بحياة أكثر من تحمين . بحياة أمانا . قولي .
- كلا ، ولكنك تضجرين من سعادتك ووحدةك . سنطردين الكلب ، والا فقد تحميه . وهذا أسوأ .
- لا تقولي مثل هذا الكلام .
- قد تحميه . — أجابتها أختها بجرارة .
- وحين قالت لها ذات يوم انها أهدت الكلب ، ابتسمت (جرتروديس) ابتسامة صريحة ، وأسرت لها في أذنها وهي تداعبها كما تداعب

الطفلة ، « خوفاً من الوحام » . وحين سمعت منها كلمة أجمل بما يشبه الهمس ، عانقت أختها بجرارة لم تكن تعتقد أنها خائفة بها .
— منذ الآن سوف لن تشعرني بالضجر من السعادة ولا من الوحدة ،
وستتعدد أعمال زوجك . هذا ما كان ينقصك .

— أليس هذا هو الذي ينقصك يا ترى ؟ ... أليس كذلك يا
أختاه ؟

— من قال لك ذلك ؟

— اسمعي ، مع فرط غباوتي ، فقد عشت بجانبك .

— ولكن ، دعينا من المزاح .

ومنذئذ أخذت (جرتروديس) تواصل زيارتها للمنزل أختها .

— ٤ —

سهرت (جرتروديس) وحدها بجانب أختها (روزا) لأن
الولادة كانت عسيرة . وظلت محتفظة بشجاعته ورباطة جأشها
مما حمل البعض على القول أنها خيرة في مثل هذه المواقف . وقد بلغت
الأزمة حداً خشي على الوالدة والولد من الموت . وقد طالب الزوج
إخراج الجنين حياً أو ميتاً .

فهتفت (جرتروديس) قائلة : — ميتاً ، هذا لن يكون .

— ولكن ألا ترين أنه إذا مات الجنين فإن الأم ستظل حية لتنجب

جنيئاً آخر ، في حين أن موتها ليس كذلك ؟

وخطر (لجرتروديس) خاطر بسرعة البرق وهو أن تقول له :

سيظل هنالك أمهات كثيرات . لكنها أمسكت نفسها ، وقالت

بالخاف :

— ميتة ... كلا . أبداً . ويجب أن نتخذ روحاً .

والنساء المسكينه لم تعلم شيئاً مما كان يدور حولها ، إلى أن أخرجت إلى الحياة طفلاً بعد عناء شديد .

فتناولته (جرتروديس) بلهفة وغسلته ، ولفته بملفاته كما لو كان هذا عملها طيلة حياتها .

— أنت قابلة الولادة . — قال لها الطبيب .

وحملت الوليد إلى والده الذي كان قابعا في إحدى الزوايا ، يتأكله الغم الشديد والخوف والندم على جريرة اقترفها . متوقعا ورود نبأ موت زوجته .

— ها هو أول أولادك فتأمله كم هو جميل .

وحين رفع الوالد نظره وقد انزاح ما كان يثقل قلبه من الغم لم ير سوى عيني ابنة حميه اللتين كانتا تشعان نورا جديدا ، ولكنه أشد بهاء من ذي قبل . وحين أراد أن يقبل تلك اللقيفة من اللحم التي تقدمها كولد له لامس خده الملتهب خد (جرتروديس) .

فقالت له هذه بهدوء — اذهب الآن واشكر زوجتك ، وشجعها واطلب سماحها .

— أطلب سماحها ؟

— أجل أطلب سماحها .

— ولماذا ؟

— أنا أعرف ، وهي أيضا تعرف . وبالنسبة لهذا . — قالت ذلك وضمت الطفل إلى صدرها الذي كان يعلو وينخفض ، فأنا سأتولى أمره ، أو سيكون في مقدوري أن أجعل منه رجلا .

كانت الدنيا تدور (برامير) . وفي أعماق روحه كان يتردد
صدى متسائلا : « من هي الأم ؟ » .

وبعد قليل وضعت (جرتروديس) الطفل بجانب أمه التي كان
يبدو أنها ترقد مجعدة ، وكان لون وجهها قد أصبح أبيض بلون الثلج .
اكن (روزا) فتحت عينيها فتلاقت نظراتها بنظرات أختها . وعندئذ
سرى في أعضاء الأم الجديدة معين من جراءة وانتصار ، ثم نادى
أختها بصوت ضعيف : - (تولا) .

- ها أنذا هنا (يا روزا) . سأظل هنا . استريحى الآن . عندما
تستريحى ترضعين الوليد كي يكف عن البكاء . ولا تشغلي بالك بشيء
آخر .

- ظننت اني سأموت (يا تولا) . والآن أشعر كأني ميتة .
ويغمني كثيرا حال (رامير) .

- اسكتي . لقد أمر الطبيب ان لا تكثري من الكلام . كان
(رامير) المسكين ميتا أكثر منك الآن . تشجعي ، والى دفعة أخرى .
فابتسمت المريضة ابتسامة حزينة .

قالت (جرتروديس) في مؤتمر عائلي صغير : - سندعو هذا
باسم والده (رامير) ، والمقبلة سنسميها (جرتروديس) باسمي .
فقال (دون بريمتيغو) : - أراك تفكرين باخرى ، وأختك
المسكينة كانت على حافة الموت ؟

فأجابت : - وما العمل ؟ ولماذا أقدمنا على الزواج اذا كان لا ؟
أليس كذلك يا (رامير) ؟ - قالت ذلك وحدثت بنظرها فيه .
وزاء هذه النظرة قال الزوج كمن فوجيء : - المهم الآن هو ان
يتحسن حالها .

- من هذه الأوجاع تتحسن صحة المرأة بسرعة .
- لقد أجاد الطبيب حين قال يا عزيزتي : يبدو انك ولدت قابلة .
- كل امرأة تولد أما ، يا خال .
- قالت ذلك بلهجة عائلية فخمة جعلت (راميرو) يشعر بقلق غامض وندامة غريبه : « هل سأحب زوجتي كما ينبغي ؟ »
- هذا ما كان يقوله لنفسه .
- وقالت له ابنة حميه : — الآن (يا راميرو) بوسعك أن تقول أن لك زوجة .
- ومنذئذ لم تتأخر قط (جرتروديس) عن بيت أختها يوماً واحدا . وكانت هي التي تبدل الثياب للطفل وتنظفه وتعتني به الى أن أصبح باستطاعة أمه أن تفعل ذلك .
- وسرعان ما تحسن حال الأم . وعاد لها جمالها بأكثر روعة . فضاعفت حنانها على زوجها ، وحتى أنها توهمت انه ينظر اليها نظرة احتقار .
- و ذات يوم قال لها زوجها : — لقد خفت على حياتك . وكنت على حافة اليأس ، ونادما .
- نادما . لماذا ؟
- لوداهمك الموت ، اذن لأطلقت على نفسي عياراً نارياً
- ولماذا ؟ « من أشياء الرجال » . وماذا ستقول (تولا) لكن ذلك مضى وانقضى ، وأنا أعرف ما هو .
- ألم تصبحي متمرنة يا (روزا) ؟
- متمرنة ؟ — قالت ذلك وطوقت بذراعها عنق زوجها وضمته

اليها بكل قواها ، وقالت له على مقربة من اذنه ولهاثها يكاد يحرقه . -
الى المرة المقبلة (يا راميرو) ، الى المرة الثانية الآن ، أصبحت أحبك
ولو أمتني .

وأثناء ذلك كانت (تولا) تلف الطفل محاذرة أن لا يفقد - وهو
السادج - مشاعر حنان وحب والديه .

كان هم الخالة أن تحمل الطفل منذ صغره وقبل أن يدرك أي
مظهر من مظاهر الحب الذي انبثق عنه . ثم علقت في عنقه تعويذة
العذراء المقدسة ، العذراء الأم محتضنة طفلها .

وكثيراً ما قالت لأختها عندما كانت تراها تتصجر من اسكات
الطفل ، أو من وضعه في اللفائف : - دعيه لي (ياروزا) ، دعيه لي ،
واذهبي لتسلية زوجك .

- ولكن ، يا (تولا) : ...

- أجل ، عليك أنت يقع عبّ العناية بالاثنين ، أما أنا فبهذا
وحده .

- يا لها من طريقة للتعبير يا (تولا) .

- لا تكوني طفلة . هيه . لقد أصبحت أما تامة . واحمدي الله
لأننا نستطيع أن نتوزع العمل .

- (تولا) ، (تولا) .

- (راميرو) ... (راميرو) (ياروزا) .

وكانت الأم تتجاهل الا أنها كانت تذهب الى حيث يكون زوجها .
وهكذا مضى الوقت ، وجاء وضع جديد ، وكانت المونودة أنثي

بعد انقضاء مدة قصيرة على ولادة الطفلة عثروا على (دون بريمتيغو) الطيب ميتا ، فغسلته (جرترووديس) - لأنها كانت تريده أن ينزل الى قبره نظيفا - وكفنته بمنتهى العناية التي أظهرتها عندما نمت الطفل الحديث الولادة بلفائفه ، وانفردت بجثمان العجوز الطيب في الغرفة وطفقت تبكيه كما لم تكن تصدق انها ستقوى عليه . وكانت تقول مخاطبة نفسها : « ما كنت أعتقد إنني أحبه كل هذا الحب . كان قديسا طيبا . بجهد قليل جعلني أعتقد اني بشر تعقل . لقد كان بسيطا » .

قالت لأختها : - كان بمثابة والد لنا . ولم نسمع منه قط كلمة أعلى من الأخرى .

فهمت (روزا) قائلة : - الأمر واضح . اذ كان يسمح لنا بأن نفعل كل ما نرغبه من رغباتنا .

- لأنه كان يعلم (يا روزا) ان وجوده كان كافياً لأن يجعل رغباتنا صالحة . كان أبا لنا . وقد هذبنا ، وكان اشعاع حياته البسيطة كافياً لذلك ...

- أجل ، هذه هي الحقيقة . - قالت (روزا) وقد تورمت عينها من البكاء . على مثل بساطته لم أر مخلوقا قط .
- كان ضرباً من المستحيل أن نجد بيتا نربى فيه أكثر طهارة من هذا البيت .

- وما تعنين بهذا (يا تولا) ؟

- أعني انه دون أن يوجه لنا كلمة واحدة ملاً حياتنا بتقديس

الأم العذراء المقدسة ، وكذلك بتقديس أخته أمنا ، وأمه جدتنا .
أتذكرين عندما كان يحملنا على أن نصلي ليلا كيف كانت تتغير نبرات
صوته عندما كان يبلغ في صلاته مقطع « أبانا ، أو أفي ماريا » في توسله
لراحة روح أمنا ، ثم عندما يتوسل لراحة روح أمه جدتنا اللتين لم
نعرفهما ؟ في هذه الصلاة وهبنا أما . وفي هذه علمك أن تكوني
كذلك .

— وكذلك أنت (يا تولا) . — هتفت (روزا) وهي تشهق بالبكاء .

— أنا ؟

— أجل أنت . من هي الأم الحقيقية لأولادي اذا لم تكوني أنت ؟

— دعي عنك هذا الآن . وتأملي هذا الصمت المقدس . لقد قيل

لي ان النساء المسكينات كن يبكين أحيانا عندما كن يسمعن عظامه
دون أن يتبين كلمة واحدة من كلماته . وهذا ما أدركه . فصوته كان
كافيا لنشر جومن الهدوء الوقور والحيي . والآن الى الصلاة (يا روزا) .

فركعت الأختان بجانب نعش خالهما المتوفي وأقبلتا تصليان نفس

الصلاة التي ظلما رافقتاه في ادائها طيلة أعوام ، وكررتا « أبانا ، وأفي

ماريا » لراحة روح أمهما أبديا ، ولراحة ذلك المسحى . وأضافتا

« أبانا وأفي ماريا » لراحة المولود السعيد . وكانت ألسنة أنوار الشموع

المضاءة على كلا جانبي الجثمان تقع على جبينه فيتلمع ويبدو أبيض

كلونها هي ، وكأنها كانت ترافق الأختين في صلاتهما . وكان جو

من السلام الصميمي ينبعث عن ذلك الميت . ونهضت الأختان من

ركوعهما على الأرض ، فقبلت (جرتروديس) جبين العجوز ،

وتلتها (روزا) . ثم تعانقتا وعيونهما تسح الدموع .

- وأسرت (جرتروديس) لأختها قولها : - الآن الى مزيد من الحب لزوجك ، والعمل على اسعاده ... ثم لمنحنا المزيد من البنين .
- والآن أظنك ستأتين لمساكتتنا . - أجابتها (روزا) .
- كلا . هذا لا - أجابت الأخرى على الفور .
- وكيف لا ؟ تقولين ذلك بحدة ...
- أجل ، أجل يا أختي . أغفري لي هذه الحدة . أغفريها . هل تغفريها ؟ وأبدت حركة كمن ترغب أن تجثو على ركبتها أمام جثمان الميت .
- لا تكوني كذلك (يا تولا) . ليس بهذا القدر . تظهرين بعض التسرعات ...
- هذا صحيح . ولكن ستغفريها لي أليس كذلك (يا روزا) ؟ ستغفريها .
- عن مثل هذا لا يُسأل . ولكن ستأتين الينا .
- لا تلحي (ياروزا) ، لا تلحي ...
- وكيف ؟ ألا تأتين لعندنا ؟ هل تتركين أبناء أختك ، أو على الأصح أبناءك ؟
- ولكنني لم أتركهم يوما واحدا ...
- هل تأتين ؟
- سأفكر في الأمر (يا روزا) . سأفكر ...
- حسن . سوف لن ألح .
- ولكنها ما لبثت الا أياما قليلة حتى أخذت تلح فأجابت (جرتروديس) مدافعة : - كلا ، كلا لا أرغب في ازعاجكم ...

- أتقولين أزعاجنا ؟ ما الذي تقولين (يا تولا) ؟
- الأزواج يريدون البيت .
- أولا يجوز أن يكون لك أيضا ؟
- كلا ، كلا . سأحد من حريتك وان كنت لا تعتقدين ذلك .
- أليس كذلك (يا راميرو) ؟
- كلا . كلا . أنا لا أرى ذلك ... غمغم الزوج بهذه الكلمات وقد بوغت شأنه كل مرة توجه اليه ابنة حميه سؤالا على غير توقع .
- أجل (يا روزا) . ان زوجك يعلم ذلك وان لم يصرح به .
- ان الزوجين ، وخصوصا اذا كانا فتيين مثلكما ، وفي فترة الانجاب يحتاجان للانفراد . وأنا الحالة سآتي في أوقاتي لتعليم أولادكما كل ما لا تقوين على القيام به .
- وظلت تواصل الزيارات ، وأحيانا مبكرة جدا فتجد أن الأطفال قد غادورا فراشهم ولكن الأبوين لم يكونا كذلك . « عندما أقول انني سأفعل ، يكون النقص هنا » كانت تقول لنفسها .

– ٦ –

كان الولد الثالث للزوجين يوشك ان يرى النور . وكانت (روزا) تنذر من الحصوبة قائلة : « سننؤ تحت كثرة الأولاد » . وعلى ذلك كانت أختها تجيبها : – « اذن لماذا تزوجت ؟ »

كان الحمل مضمكًا للوالدة ، وكان يضطرها الى اهمال أمر ولديها الآخرين أكثر من ذي قبل . وهكذا أصبحت بعهدة خالتهما ، وسرها كثيرا أن تركهما لها ، وحتى توصلت في بعض الأيام أن تصحبهما معها الى البيت المنفرد ، منزل العزباء حيث كانت تعيش

مع خادمة خالها (دون برميثيغو) العجوز ، وهناك كانت تبقيهما
وكان الطفلان يلتفان بحنان أعمى حول تلك المرأة الصلبة .

كان (راميرو) يبدو منزعجا في الأشهر الأخيرة من حمل زوجته
الأول ، الأمر الذي كان يضجر (جرتروديس) ، أما الآن فالحال
أشد . .

— ما أزعج هذا وأثقله . — كان يقول .

— لك ؟ — كانت ابنة حميه توجه اليه هذا السؤال دون أن ترفع
نظرها عن ابن أختها أو ابنة أختها التي قد تكون تحتضنها .

— نعم لي ، فأنا أعيش في حالة قلق خائفا من كل شيء .

— هاه . وفي النهاية سوف لن يكون شيء فالطبيعة حكيمة .

— ولكن السيل يتدفق غزيرا على الحوض ...

— آه ، يا بني ، لكل شيء محاذيره . واكل وضع معاكساته .

كان (راميرو) ينكمش عندما تدعوه ابنة حميه بيا بني ، وكانت
تنهرب من مناداته باسمه ، في حين كان يسره هو أن يدعوها
باسمها (تولا) بصورة عائلية .

— كم كنت مصيبة (يا تولا) بعدم الزواج .

— صحيح ؟ — قالت ذلك وسددت نظراتها الى عينيه .

— أجل ، صحيح . المتاعب كثيرة والمخاطر أيضا .

— وهل يا ترى تعلم اذا كنت لا أنوي أن أتزوج ؟

— الأمر واضح . بسبب السن .

— ولكن لماذا سألني ؟

— اني لا أرى منك ميلا لذلك ...

- ميلا للزواج ؟ ما هذا ؟
- حسن . هو ان ...
- هو انك لا تراني افتش عن عريس . أليس كذلك ؟
- كلا . ليس كذلك .
- أجل هو ذاك .
- لو رغبت ما كان ليعوزك دون شك ...
- ولكني لا أستطيع البحث عن العريس . لست رجلا . وعلى المرأة أن تنتظر الى أن تصبح مختارة . أما أنا ففي الحقيقة أشتهي أن أختار لا أن أصبح مختارة .
- ما هذا الذي تتحدثان به ؟ – قالت (روزا) وقد دنت منهما وألقت بجسمها على المقعد منهوكة القوى .
- لا شيء . انها شروح يشرحها زوجها حول فوائد الزواج ومضايقاته .
- لا تبحث بمثل هذا (يا راميرو) . قليل ما تعلمونه انتم الرجال عن مثل هذا . نحن اللواتي نتزوج وليس أنتم .
- ولكن يا امرأة .
- صه ، وتعال ساعدني فلست أقوى على الوقوف الا بجهد . سأستلقي . وداعا (تولا) . أتركهم لك .
- فتقدم زوجها منها واحتضنها بين ذراعيه ، فجلست ووقفت بجهد . ثم وضعت ذراعيها على كتفه وحنّت رأسها حتى كاد يلاصق رأسه وأمسكت يسراه يسراها ومشيت ببطء متكئة عليه وهي تتوجع . وكانت (جرتروديس) وهي تجلس ابني اختها على ركبتيها ، تراقب

مشي أختها المجهد ، وهي متعلقة بزوجها كالأشجار المتسلقة . فامتلات
عينها الخزيتان الشديدتا الجذ والصفاء بالدموع ، وقد احتضنت
الصغيرين والصقت خديها بجديهما . وعندما رأى (راميرين) الصغير
بكاء خالته (تيتا تولا) شرع هو يبكي أيضا .

— هيا . لا تبك . وقم بنا نلعب .

— لقد أضعف (روزا) حملها الثالث .

— الذي سبق احساس سي (يا تولا) .

— لا تقيمي وزنا للتنبؤات .

— ليست تنبؤات . وانما أنا أشعر وكأن الحياة تفارقي .

لقد نرف دمي .

— سيعود من جديد .

— على الأقل سوف لن أقوى على ارضاع الطفل . المرضعات

(يا تولا) هذا ما يخيفني .

وكان هذا هو الواقع . فخلال أيام قليلة أستبدلوا ثلاث مرضعات .

كان الأب متهيجا . وكان يقول انه سيعاملهن بالضرب . وكانت

الأم تنهار .

— هذا سيزول . — قال الطبيب ذات يوم .

كان (راميرو) يطوف في البيت هائما على وجهه كالأبله وقد

تملكه ندم غريب وهياج مفاجيء . وذات ليلة قال لابنة حميه :

— ولكن يبدو ان (روزا) لم تفعل شيئا من أجل الحياة . لقد

حشت رأسها بالاعتقاد بأنها على وشك أن تموت . وواضح أن هذا

يقود للموت . لماذا لا تعلمي على بعث الحيوية في نفسها وتقنعها بالحياة ؟

— أنت يا بني ، أنت زوجها . فاذا لم تنعش أنت في نفسها شهية الحياة فمن ذا الذي سينعشها عندها ؟ وليس ما تعانیه من ضعف وانهاك هو الذي سيقودها الى الموت ، وانما تفكيرها بأنها على وشك أن تموت . فها أنت ترى حتى انها سرعان ما تتعب من الأطفال ، ولا تسأل الا عن أمور الروح .

كانت (روزا) المسكينة تعيش وكأنها في حلم ، وفي شبه غيبوبة متواصلة ، وترى الأشياء ملفوفة بالضباب .
وذات أمسية انفردت بأختها وقالت لها بعبارة متقطعة ، ولهاث ضعيف وقد أمسكت يدها :

— اسمعي (يا تولا) . أنا على حافة الموت ولا علاج لي . اترك لك أولادي فلذات كبدي . وأدع لك (راميرو) الذي هو بمثابة ولد آخر . صدقيني انه طفل آخر . طفل كبير وقلب ، ولكنه طيب طيب أكثر من الخبز . لم يسبب لي ما أكرهه . ها أنا أدعهم لك (يا تولا) .

— لا تهتمي (يا روزا) . فأنا أعرف واجباتي .

— واجبات ... واجبات ...

— أجل ، أنا أعرف محبتي . ما زلت على قيد الحياة فلن يعدم بنوك أمّا .

— شكرا (يا تولا) . شكرا لك . هذا ما أطلبه منك .

— اذن لا تشككي في ذلك .

- معنى ذلك أن أولادي سوف لن يربوا في كنف زوجة أب ؟
- ما تعنين بذلك (يا روزا) ؟
- ذلك لأن (راميرو) سيتزوج ثانية ... وذلك امر طبيعي ... فهو مازال شابا ... وأنا أعلم انه لا يستطيع البقاء بدون امرأة ... أنا أعلم ... لأنه ...
- ماذا تريدن أن تقولي ؟
- ستكوفين أنت زوجته (يا تولا) .
- ألم أقل لك هذا (يا روزا) . والآن في مثل هذا الظرف لا استطيع أن أكذب — ألم أقل لك اني سأتزوج زوجك اذا هو فقدك . لقد قلت لك أن أولادك سوف لن يصبحوا بغير أم ...
- كلا . لقد قلت لي انهم لن يربوا في كنف زوجة أب .
- حسن . سوف لن يربوا في كنف زوجة أب .
- وهذا لن يتأتى اذا أنت لم تتزوجي (راميرو) . أنا أحسن بالغيرة ، من أخرى ، أجل . ليكن لك ، ليكن لك . فقد يكون ...
- ولماذا سيتزوج ثانية ؟
- آه ، (يا تولا) . أنت لا تعرفين الرجال . أنت لا تعرفين زوجي ...
- كلا ، أنا لا أعرفه .
- ولكن أنا أعرفه .
- من يدري ...
- وأغمي على المسكينه .

ونادت بعد ذلك زوجها . وعند خروجه من المخدع كان مضطربا
أصفر اللون كالأموات .

كان الموت يشحذ منجمله في زاوية من بيت (روزا وراميرو) .
وبينما كانت حياة الأم الشابة تسرب قطرات كان لا مفر من البحث
عن مربية ومرضعة للطفل الذي يعاني الجوع . وكانت (جرتروديس) ،
وقد تركت أختها راقدة في فراشها تحتضر ببطء ، لا تنفك تبحث عن
ثدي رحيم لابن أختها .

حاولت خداع جوعه ، فوضعت في فمه رضاعه .

– وهذه المرضعة ؟

– لا تستطيع أن تأتي قبل نهار الغد يا آنسه .

– اسمعي (يا تولا) . – قال (راميرو) .

– دعني ، دعني واذهب الى جانب سرير زوجتك التي ستفارق

الحياة بين حين وآخر . اذهب فهناك مكانك ، ودعني والطفل .

– ولكن (يا تولا) .

– دعني قلت لك . اذهب لتشهد موتها ، كي تدخل حياة أخرى

بين أحضانك . اذهب . ودعني .

فذهب (راميرو) ، فاحتضنت (تولا) ابن أختها الذي كان

لا ينفك باكيا ، وانثحت به مخدعا أغلقته وراءها ، وأخرجت أحد

ثدييها الخافين ، ثدي العزباء الذي كان يترجرج كأن حمى قد أصابته .

كان يترجرج بفعل نبضات القلب . كان الثدي الأيمن فوضعت حلمته

في فم الطفل الوردي الذي كان لا ينفك يتوجع وهو يشد بشفتيه

الصفراوين على تلك الحلمة الخافة .

— هيني معجزة أيتها العذراء القديسه — كانت تتوسل وعيناها
تذرفان الدموع — معجزة ، وسوف لن يعلم بها أحد قط .

وكانت تضم الطفل الى صدرها كالمجنونة .
وطرق سمعها صوت وقع أقدام ثم محاولة فتح الباب فأخفت
نديها وكفكفت دموعها وذهبت لتفتح الباب . كان القادم (راميرو)
الذي قال لها : — لقد انتهى كل شيء .

— ليحلها الله في ملكوته . والآن (يا راميرو) الى الاعتناء بهؤلاء .

— الاعتناء ؟ أنت ... أنت ... لأن بدونك ...

— حسن . والآن الى تربيتهم . أقول لك ...

— ٧ —

الآن ، وقد أصبح (راميرو) أرملًا ، الآن يتبين له واضحًا ما
كان يحمله من الحب (لروزا) زوجته دون أن يكاد يشعر . كانت
تعزيتة الكبرى هي أن يقبع في المخدع الذي طالما احتواه ، ومارس فيه
الحب وبادله وتبادله ليسترجع ذكرى حياته الزوجية .

في البداية ، أيام الخطوبة ، تلك الخطوبة التي لم يطل أمدها ،
والتي كانت فترة راحة بطيئة ، كانت (روزا) أثناءها تختلس منه
قرارة روحه على الدوام ، وكأنها ليست له ، أو تجعله يعتقد انه لن
يعرفها قبل أن تصبح له بصورة تامة . تلك الخطوبة المتحفظة المحاذرة
التي ترعاها نظرات (جرتروديس) التي كانت كلها روح . كان
(راميرو) يستعيد ويتذكر كيف كان حضور (جرتروديس)
الحالة (تولا) ، خالة أبنائه يجد من تصرفاته ، ويزعجه . وكيف

كان لا يجرؤ على أن يطلق أمامها مزحة مما ألفت العرائس أن يتبادلوه .
وكيف كان يزن كل كلمة من كلماته .

وبعد ذلك جاءت فترة الزواج ، ونشوة الأشهر الأولى وأشهر
العسل . كانت (روزا) تفتح له نفسها ولكن هذه كانت من البساطة
والصفاء بحيث جعلت زوجها يدرك انها لم تخف ولم تحاذر شيئا اذ
كانت تحمل قلبها بيدها التي كانت تبسطها كتقدمة ، وتعرض أمام
الملاّخلجات نفسها ، منصرفه انصرافا كليا للعناية بالحاضر كما تعيش
وردات الحقول وقبرات الفضاء . كذلك كادت نفس (روزا) أن
تكون انمكاساً لنفس أختها . أو كالجداول الجاري تحت نور الشمس ،
انما تلك ينبوعه المغلق .

وجاء يوم زالت فيه الغشاوة عن عيني (راميرو) وتطهرت
نظراته فأصبح يبصر بقلبه بوضوح . لم تكن (روزا) من الجمال على
مثل ما رآها هو وتصورها ، وانما كانت صورة عادية ، لكنها
تحتوي على كل ما في العادي الساذج من فتنه . كانت كالحبز اليومي ،
كالحبز البيتي اليومي ، لا كالحلوى النادرة ذات المحتوى المغلق .
فنظرتها التي كانت تشر السلام ، وابتسامتها ، وحيويتها كانت كلها
تجسيدا لنفس متعطشة ، وادعة ، وأليفة . كانت زوجته المسكينة نبتة
في حقل الوداعة الهادئ ، مهمتها الصامته امتصاص النور بعينيتها
واكتنازه وتوزيعه فيما بعد وقد استحال سلاما . وبقواها اليقظة
الحذرة تشبه الشجرة التي تمتص بصورة متتالية صهارة الحياة العادية
فتنشر بصورة طبيعية تويجات أزهارها العطرة .

ويا لها من ذكريات . تلك الألعاب التي كانت المسكينة تفر

خلالها منه فيلحق هو بها طائفا في سائر أرجاء البيت ، ويتظاهر بأنه قد ظفر بها ليتقاضاها على ذلك جملا هو عبارة عن قبلات مستطيلة يطبق فيها القم على القم ، وامسكه وجهها بيديه الاثنتين محمدا بروحها عبر عينيها ، ومطيلا التحديق ، وخصوصا عندما كان يضع أذنه على صدرها وقد شبك ذراعيه حول خصرها ، ويقبل يصغي الى مسيرة قلبها الهادئة . فيقول لها : « صه ، دعيه يتكلم » .

وزيادات (جرتروديس) التي كانت وكأنها تقول له عبر عينيها الحزيتين اللتين تطل منهما روحها المغلقة : « أنتما طفلان . وعندما لا أكون أراكما تمارسان لعبة الزوج والزوجة . التهيؤ لانجاب الأولاد ليس هكذا ، فالزواج وضع للزواج ، واسعاد الأزواج ، وانجاب البنين للسماء » .

وكان الأولاد في رأس قائمة تأملاته ، اذ كان قد انقضى شهر وأشهر أيضا ، وعندما لم تظهر دلائل وعلامات على أن انجابا سيتم من ذلك الحب كان يقول مخاطبا نفسه : « هل كانت (جرتروديس) على حق ؟ هل صحيح اننا نلعب لعبة الزوج والزوجة دون أن نرغب في ثمرة مباركة الحب الصادق مع كل ما نملك من شدة الايمان بالواجب ؟ » ولكن ما كان يزعجه آنئذ ، ولا يزال يتذكره الآن هو ما كان الآخرون يفكرون به عنه حين لم ينجب ولدا وهو أنه أقل رجولة من سواه . لماذا لم يأت ما يأتيه أي صبي هزيل الجسم رعديد أو ما هو أفضل ؟ وكان هذا يجرح كبريائه . كان يتمنى أن تلد زوجته ولدا بعد انقضاء تسعة أشهر تامة على زواجهما . وكان يقول في نفسه : وانجاب الأولاد وعدمه يتعلق بمدى شدة الحب لدى الأزواج ، أو عدمه . ولكن هنالك طائفة من المحبين من لم ينجبوا . كما ان هنالك من المخادين طمعا في

الثروة ، أو للمغامرة من أثقلت كواهلهم الأبناء . لكنه كان لا يزال يذكر جيدا انه كان قد كون لنفسه نظرية وهي ان بعض الحب مجرد مظاهر ، وينبع من الرأس ، وانه قد يظهر بمظهر رائع ، ومع ذلك فقد يكون عقيما . وهناك آخر جوهرى وخفي حتى عن ادراك الذين يغذونه . حب من الروح والجسد ، حب مثمر دائما . ألم يكن حبه (لروزا) عظيما ، أو لم يكن حبه لها على مثل ذلك ؟ والآن يتذكر كيف حاول حل اللغز بينما كان يغمرها بالقبلات ، في أحضان عتمة الليل وهدوئه ، وعلى انفراد اذ كان يهمس لها في أذنها متوسلا : « هل تحبيني (ياروزا) هل تحبيني ؟ في حين كانت تند عنها كلمة « أجل » بطيئة ناعمة . كان ذلك جنونا ، جنونا بليدا يستحي منه كلما رأى (جرتروديس) تدخل ناشرة حولها وقارا هادئا . وقد شفاه من هذا الجنون نضوج الحب عندما تلقى البشرى بقدم الوليد . كان تحولا مجنونا ... لقد انتصر . وعندئذ جاء الحب الحقيقي مع أولى ثمراته الحب نعم . حب ؟ يقولون حب ؟ ماذا يعرف عنه كل الكتاب الحبيين الذين ليسوا محبين . الذين يتحدثون عنه ويحاولون ايقاظه عند القراء ؟ ماذا يعرف عنه أبطال الكلمة ؟ حب ؟ حب ؟ لا . والأفضل حنو . لقد أصبح (راميرو) الآن يقول مخاطبا نفسه : عن الحب تعرف الكتب . في المسارح والروايات وحدها تسمع عبارة « أنا أحبك » . وفي حياة اللحم والدم والعظم العبارة القلبية الأكثر لصوقا بالقلب هي تلك التي لا تقال . حب ؟ كلا . حتى ولا حنو على الأفل ، وانما هو شيء لا اسم له ، ولا هو يقال لاشتكاله مع الحياة ذاتها . أكثر المتغنين بالحب يعرفون عنه ما يعرفه المصلون النائحون ، عن الصلاة ومبتلعو التساعيات (صلاة تساعيه) ، وقاضمو الصلوات . ليست

الصلاة هي التي تتم في ساعات معينة ، وفي مكان منعزل ووضع مركب . وانما هي أن تؤتي بخشوع من الروح وبالأقبال على الله .
ليكن الأكل ، والشرب ، والتنزه ، واللعب ، والقراءة ، والكتابة ، والتحدث ، وحتى النوم ، وجميع الصلوات ، وحياتنا ، كل هذا
ليكن صلاة صامته ومستمرة : « لتكن مشيئتك » ، « وليأت الينا ملكوتك »
دائمة لا ينطق بها اللسان على الأقل ولا تساور الفكر وانما نحيها .
هكذا سمع (راميرو) قديسا ومدرسا دينيا يصلي ، فطبق صلاته على الحب .
وبما انه كان يجاهر بذلك أمام زوجته ، ويطبقه عليها ، فقد تبين الآن كم كانت تأخذ به في حياتها ، وتطبقه على سيرتها اليومية ،
وتصرفاتها البيتية ، والذي كان لها بمثابة الهواء الذي تستنشقه والذي لا نشعر به الا في اوقات الاختناق حين نفتقده . والآن وقد بات (راميرو)
على وشك الاختناق فقد تبين عبر ما ألم به من الغم لترمله مدى سلطان الحب القديم الذي عاشه .

في بداية عهده بالزواج كانت الشهوة هي المسيطرة . لم يكن يستطيع أن يلامس اللحم دون أن يستعر لحمه ويرتعش وتتسارع نبضات قلبه ،
ذلك لأن الأخرى لم تكن قد أصبحت له بصورة تامة . ولكن فيما بعد كان يضع يده على جسمها العاري بنفس الهدوء كما لو كان يضعها على جسمه هو . ولكن لو علم أن عضوا منها سيتر فإن ذلك سيسبب له من الألم ما يسببه له بتر عضو منه ، ترى ألم يشعر وتتألم أحشاؤه عند ولادات (روزا) ؟

وحين رآها وقد استفزها السرور بعد ولادة والدها عندئذ أدرك ان الحب أقوى من الحياة والموت ، وانه يطغي على تناقضهما . كيف

يجعل الحياة تموت ، والموت يحيا . كيف يحيا هو الآن موت زوجته
(روزا) ، وكيف يموت في حياته . ثم بعد ذلك حين رأى الطفل
راقدا في سريره هائلا ، وشفثاه الورديتان شبه مفتوحتين أبصر الحب
وقد استحال لهما حياً . وازاء السرير ، وهو يتأمل ثمرته ضم الأم الى
صدره حين كان الطفل يبتسم في الحلم محركا شفثيه ، وطفق يقبل
شفتي (روزا) الورديتين الغضبتين ، وينبوع السلام في عينيها ، ويقول
لها وقد أبرز اصبعين من أصابعه : « مرة أخرى . اثنين ، اثنين ... »
فتجيبه ضاحكة « كلا . كلا . يكفي ، يكفي واحد » . فيقول هو
(اثنين ، اثنين . لقد استبدت بي نزوة تطالب أن يكون لنا توأمان .
ذكر وأنثى) . وعندما حملت (روزا) للمرة الثانية كان عند كل
خطوة تخطوها ، أو عثرة تعثرها يقول « ما أثقل هذا ، وأية خصوبة .
أظن ان قولي سيحقق . على الأقل اثنين » . فكانت تجيبه وهي تضحك :
« واحد . ويكون الأخير وكفى » . وجاءت الثانية وكانت أنثى
(توليتا) ، وبعد ان خرجت سالمة وحية ، واستراحت الأم قبل فمها
قبلة طويلة حارة كمكافأة لها وقال : « لقد أجدت العمل يا مسكينة »
بينما كانت (روزا) ، وقد انتصرت على الموت والحياة ، تبتسم
بعينيها الوادعتين الأليفتين .

وماتت ، وان خيل ان هذا كذب . ماتت . حانت الأمسية
المؤلة من الصراع الأخير . كانت (جرترووديس) حاضرة هناك .
وكانت كلما سمحت لها مهمة العناية بالطفلة التي كانت تتضور جوعا
تقدم العلاج غير المجدي ، وتسوي السرير ، وتشجع المريضة ،
وتقوي معويات الجسيع . كانت المريضة مستلقية على الفراش الذي

انبثقت عنه ثلاثة أرواح ، وقد تعذر عليها الكلام . وخارت قواها ،
وأمسك رجلها ، والد أبنائها بيدها فكانت تنظر اليه كفريق في خضم
مترامي الأطراف يرسل نظراته الى البعيد ، الى نتوء في جبل حيث
مسقط رأسه تواري وراء الأفق . وفي أويقات البهر والاختناق ، كانت
عينها ترنو من وراء الأبدية الى عيني (راميرو) . وهذه النظرات
كانت كأنها تسألا يائساً ، تسأل من يتهبأ لسفر لن يعود منه الى الأرض
عن سر الحياة الخفي . تلك النظرات الناطقة بالغم والجزع الهادئ
كانت وكأنها تقول : « أنت . أنت . أنت كنت حياتي . أنت شاركتني مهمة
استقدام أبناء قفاء جدد الى الدنيا . أنت أخرجت مني حيوات ثلاثة .
أنت رجلي ، قل لي ما هو هذا ؟ » كانت أمسية قاتمة . في أويقات
الهدوء كانت تبسم ابتسامات حزينة وهي تمسك بيديها الحارتين
الرطبتين يدي (راميرو) المرتعشتين وتصوب الى عينيه نظرات عينيها
المتورمتين المتعبتين من الحياة ، ثم تحولهما الى الطفل الراقد في سريره
بالقرب منها ، وتقول بنظراتها ، وأحيانا بصوت ضعيف : « لا
توقظه . لا توقظه . فليئم المسكين ليئم ... ليئم حتى يستكفي . فليئم » .
وأزفت ساعتها الحاسمة . ساعة الانتقال ، فكانت وكأنها عند حوافي
الظلمات الأبدية معلقة فوق الهاوية ، تتمسك فيه ، برجلها الذي كان
يتردد وكأنه يشعر بأنه ينحرف . كانت تحاول أن تفتح حلقها بأظافرها ،
مسددة اليه نظراتها المدعورة طالبة منه بنظرات عينيها هواء ، ثم
تحولها الى أعماق نفسه . وأفلتت يده ، وسقطت فوق السرير حيث
حملت وأنجبت ثلاث بنين . واستراح الاثنان . كان (راميرو) ذاهلا
متصلب الفؤاد ، وكأنه في حلم غير ذي نهاية ، ولا منه يقظة ، ميت

الروح بينما كان الطفل راقدًا . وجاءت (جرتروديس) وهي تحتضن
الطفلة فأغمضت عيني أختها ، وأصلحت وضعها ، ثم ذهبت لتغطي
الطفل النائم وبقبله نقلت إليه الحرارة التي استمدتها من الحياة التي
مازالت ظلها طافية فوق جبين الأم المنهكة .

ولكن هل ماتت (روزا) ؟ هل صحيح أنها ماتت ؟ هل تستطيع
أن تموت وهي حية باقية فيه ، في (راميرو) ؟ كلا . في لياليه حيث
يرقد وحيدا في ذلك السرير ، سرير الموت والحياة والحب كان
يجس تصعد أنفاسها ، وحرارتها الفاترة وان كان أحساسا مؤلماً بالفراغ .
وكان يمد يده فيطوقها في الجزء الثاني من السرير وأحياناً يشد بها .
وأسوأ ما في الأمر هو أنه عندما يصحو كان ينصرف للتفكير
بها فلا يخطر له سوى أشياء من الكتب ، أشياء عن الحب ،
حب الكتب ، وليس عن الحنو في الحياة ، فيؤله ان ذلك الشعور
القوي ، حياة حياته ، وأنفاس روحه لم يكن يتهاى له الا بجهد جهيد ،
فيحيله الألم نفسانيا يعني مهذبا ، لكن ذلك سرعان ما يتبخر مع الهواء
عندما تدخل (جرتروديس) .

بقي له من كل هذا ذلك الصوت الناعم الذي يناديه (بابا) .
اذن كانت هي هناك ، الميتة الخالدة . ثم نفس الصوت ينادي (ماما) .
وصوت (جرتروديس) الوقور يجيب « ولدي » .

كلا . لم تمت زوجته (روزا) . ليس ممكنا أن تكون قد ماتت ،
كانت المرأة حية هناك كالماضي ناشرة حيوات من حولها . الزوجة
لا تستطيع أن تموت .

— ٨ —

قالت (جرتروديس) لصهرها ، وكانت قد جاءت لتقيم في

بيت أختها منذ ولادتها الأخيرة ، وظلت هناك طوال مرض أختها
الأخير :

— اسمع : سأهجر بيتي .

فتسارعت دقات قلب (راميرو) .

وأضافت : — أجل علي أن أقيم معكم للعناية بالصغار . لا يمكن
ترك تلك المرضعة الناعمة وحدها .

— جزاك الله خيراً (يا تولا) .

— لا تقل (تولا) . لقد سبق ان قلت لك ذلك . بالنسبة لك أنا

(جرتروديس) .

— وما الفرق ؟

— أنا أعلم .

— اسمعي يا (جرتروديس) ...

— حسن . أنا ذاهبة لأرى ما الذي تفعله المرضعة .

وكانت تراقبها بلا كلل . لم تكن تسمح لها بأن تضع حلمة ثديها
في فم الطفل أمام والده . وكانت تؤنبها على قلة الحيلة والاستهتار ،
عندما تفتح ثوبها لتخرج ثديها .

— ما من حاجة لابرازه بهذه الصورة . المهم هو أن يكون لدى

الطفل ما يكفيه من الحليب .

وكان (راميرو) يتألم ، (وجرتروديس) كانت تعلم انه يتألم .

— مسكينة (روزا) . — كان يقول دائما .

— الأطفال المساكين هم الذين يجب التفكير بهم الآن . .

– كلا ، لا يكفي . لا أشعر بالراحة الا قليلا ، وخصوصا في الليل . أشعر بثقل الوحدة . كثيرا ما أفضي الليل ساهرا .

– اخرج من البيت بعد العشاء كما كنت تفعل عندما كنت متزوجاً . ولا تعد قبل أن تشعر بالنعاس . على المرء أن لا يتوسد فراشه الا عندما يحس بالحاجة الى النوم .

– ولكني أشعر بفراغ .

– تشعر بفراغ ولديك صبية ؟

– ولكن هي لا تعوض ...

– هذا ما أعتقده ... وان كنتم أنتم الرجال ...

– لم أصدق اني كنت أحبها بهذا القدر ...

– هكذا يحدث دائما . هذا ما حدث لي بالنسبة لخالي ، وهذا أيضا

ما حدث لي بالنسبة لأختي ، بالنسبة (لروزا) . لم أعرف مدى حبي لها الى أن ماتت . الآن أعلم ذلك عن طريق عنايتي بأولادها ، أولادكما .

وهكذا فنحن نحب الموتى بحبنا للأحياء .

– أوليس اننا نحب الأحياء بحبنا للموتى ؟

– دع التعمق في التفكير .

وفي الصباح كانت ابنة حميه تفتح باب الشرفة بعد ان يكون (راميرو) قد غادر فراشه لتخرج « رائحة الرجال » كما كانت تقول – وكانت تتحاشى الانفراد بصهرها ولذا كانت دائما تصطحب معها أحد الأولاد ، الذين كانت تراقبهم وهم يلعبون وهي جالسة على المقعد الذي كانت تجلس عليه الفقيدة .

وذات يوم سمعت (راميرين) يقول لأخته الصغيرة بصوت ضعيف : - أنا صغير ، وأنت أكثر من صغيرة .

- (يا راميرين ، يا راميرين) - قالت له خالته - ما هذا ؟ هل بدأت تصبح فجأ ، أن تكون رجلا ؟

وذات يوم نادى (راميرو) ابنة حميه وقال لها : - لقد سرقت سرك (يا جرتروديس) .

- وأي سر ؟

- علاقتك مع (ريكاردو) قريبي .

- هذا صحيح . وقد حاول ولاحقني . ولم يكن يدعي بسلام . وقد شعرت بالأسى عليه في النهاية .

- وكنت تخفين ذلك بهذا القدر ...

- ولماذا اعلانه ؟

- وأنا أعرف ما هو أكثر .

- وما الذي تعرفه ؟

- انك صرفتيه .

- هذا صحيح أيضا .

- وقد أطلعني على رسالتك .

- كيف ؟ ما كنت أعتقد انه سيفعل . لقد أحسنت في مفارقتي

له . هو رجل على كل حال .

وفعلا كان (راميرو) قد اطلع على رسالة ابنة حميه الى

(ريكاردو) وفي ما يلي نصها :

« حبيبي ريكاردو . أنت لا تعرف تماماً مدى سوء الأيام التي أعيشها منذ وفاة أخي المسكينة (روزا) . والأخيرة منها أشد إيلاماً . لا أفقا أتوسل الى العذراء القدسية وولدها ان يمنحاني القوة على تيين مستقبلي . وأنت لا تعرف تماماً كم يؤلمني ويغمني أن أصرح لك ان علاقتنا لا يمكن أن تستمر ، لأنني لا أستطيع أن أتزوج . فأختي لا تنفك تتوسل الي من العالم الآخر أن لا أهجر أولادها ، وأن أكون لهم بمثابة الأم . ووجود هؤلاء الأولاد يحول دون زواجي . سامحني (يا ريكاردو) ، سامحني أستحلفك بالله . وتبين جيداً لماذا أفعل ذلك . انه ليغمني كثيراً ، لأنني أعلم انني قد أحببتك ، ولانني أعلم مدى حبك لي ، ومدى ماستلاقي من الغم . ولكنك وأنت الرجل الطيب ستقدر واجباتي والأسباب التي حملتني على اتخاذ هذا القرار ، وستصادف امرأة غيري ليس لها مثل واجباتي المقدسة توفر لك من السعادة أكثر مما كان بوسعي أن أوفر لك . وداعاً (يا ريكاردو) ، ولتهدأ ، وكن سعيداً ، ووفر سعادة للآخرين ، وكن على ثقة انني لن أنساك أبداً ، أبداً . (جرترووديس) .

وأضاف (راميرو) : — والآن يرغب (ريكاردو) في أن يراك على الرغم من كل ذلك .

— وهل اعتدت أن أخفي يا ترى ؟

— كلا . ولكن ...

— قل له أن يأتي متى شاء الى بيتنا هذا .

— بيتنا (يا جرترووديس) ، بيتنا ...

— اجل ، بيتنا ، بيت أولادنا .

- أنت لو أردت ...
- لا تحدثني بهذا . - قالت ذلك وقد هبت واقفة .
- وجاء (ريكاردو) في اليوم التالي .
- أستحلفك بالله (يا تولا) .
- لا تعد الى ما مضى (يا ريكاردو) فقد قضي الأمر .
- أستحلفك بالله . - قال ذلك وقد اختنق صوته .
- كن رجلا (يا ريكاردو) . كن قويا .
- ولكن لهم والد ...
- لا يكفي ، اذ ليس لهم أم ... أعني أن لهم أما .
- بوسعه أن يعود فيتزوج ثانية .
- يعود فيتزوج هو ؟ في هذه الحالة سيصبح الأولاد عندي ...
- لقد وعدت أمهم وهي على فراش الموت بأن أولادها لن يربوا عند زوجة أب .
- واذا أصبحت أنت تلك (يا تولا) ؟
- كيف أنا ؟
- أجل أنت اذا ما تزوجتي (راميرو)
- لن يكون هذا .
- هكذا أنا أتصور .
- هذا لن يكون . لقد قلت لك ان هذا لن يكون . سوف لن أدع مجالا لأن يقوم ذوي أعني ثمرة أحشائي فيضعفوا ما أحمله من الحب لهؤلاء . وأكثر من ذلك لأولادي . لن يكون هذا . حسبي تربية هؤلاء .

- سوف لن تستطيعي اقناع أحد (يا تولا) بأذك جئت للسكنة
هنا لهذا الغرض .
- أنا لا أحاول إقناع أحد بشيء . وبالنسبة لك يكفي أن أقوله .
وافترقا الى ما لا نهاية .
- وكيف ؟ – قال (راميرو) يسألها فيما بعد .
- هو اننا انتهينا . لا يمكن أن يكون بغير ذلك .
- وأصبحت الآن حرة ...
- كنت حرة . وأنا حرة . وأنوي أن أموت حرة .
- (جرتروديس ... جرتروديس) . – قال ذلك متوسلا وقد
اضطرب صوته .
- لقد ودعته لأنني أدين ، كما قلت لك ، لأولادك لأولاد
(روزا) ...
- وأولادك ... ألم تقولي ذلك ؟
- أجل أولادي .
- ولكن لو رغبت ...
- لا تلح . لقد سبق وقلت لك اني لن اتزوجك انت ، وأقل
من ذلك غيرك .
- أقل ؟ – قال ذلك وفتح لها صدره .
- أجل أقل .
- ولماذا لم تدخلي سلك الرهينة ؟
- لا أحب أن يأمرني أحد .

— اذا أنت دخلت الدير فستكوني رئيسة الدير الأولى .
— أن أكون آمرة فهذا أقل ما أرغب فيه . (يا راميرين) ...
فخفف الصبي لتلبية النداء ، فاحتضنته خالته وأسرت له في
أذنه : « هيا بنا نلعب لعبة المخبأة يا غالي » .
— ولكن (يا تولا) .
— لقد قلت لك . — واذا قالت هذا اقتربت منه وقالت له همسا
بأذنه وهي تمسك الصبي بيدها — لا تدعوني باسم (تولا) وعلى الأحص
أمام الأطفال . لا بأس أن ينادوني هم ، ولكن أنت لا . احترم الصغار .
— بماذا فرطت في احترامي لهم ؟
— بتركك غرائزك مكشوفة أمامهم بهذا المقدار ...
— ولكن ما داموا لا يدركون .
يدرك الصبيان كل شيء أكثر منا . وهم لا ينسون شيئا . اذا
كانوا الآن لا يفقهونه فأنهم في غد سيفقهونه . كل ما يراه الصبي
أو يسمعه سيكون بذرة في نفسه وستنبت فيما بعد وتؤتي ثمارها
وكفى .

— ٩ —

بدأت في ذلك البيت حياة قلق مؤلمة . صراع داخلي . كانت هي
تدفع عن نفسها ، أو تحتمي بالصغار الذين كانت تتوخى أن يكونوا
حاضرين ، بينما كانت تستحثة هو على الخروج للتريض . ومن جهته هو
كان يكثر من اظهار حبه وحنوه على الصبيان . ولم يكن يفعل شيئا
سوى التحدث اليهم عن أمهم ، المسكينة أمهم . وكان يحتضن الطفلة
فيغمرها بالقبلات أمام خالتها .

– ليس بهذا المقدار يا رجل . ليس بهذا المقدار لأنك لا تأتي سوى إزعاج الطفلة . واسمح لي أن أقول لك ان هذا غير طبيعي لا بأس في أن تجعلهم ينادوني يا خالة وليس يا أمه ، ليس بهذا القدر . امسك نفسك .

– أليس لي أن أتعزى بأولادي ؟

– أجل يا بني ، أجل . ولكن لتهذيبهم يحتل الصدارة .

– وهذا ؟

– إغراقهم في القبل والخلوى يحياهم ضعافا . ولاحظ ان الصبيان يتكهنون

– وأي ذنب لي ...

– ولكن هل يوجد بيت خير من هذا لصبيان من رجال الله ؟ لديهم مسكن ، مسكن حقيقي ، ووالد ووالدة ، مسكن نظيف وظاهر ، بوسعهم ان يتجولوا في أرجائه متى شاؤا ، مسكن ليس من حاجة لاعلاق أي باب من أبوابه ، مسكن لا أسرار فيه . فهل تريد أكثر من ذلك ؟

ولكنه كان يرغب في الدنو منها حتى يكاد يلامسها . وذات مرة اضطرت أن تقول له وهما على المائدة .

– لا تنظر الي هكذا ، فالأطفال يرون .

واعتادت أن تجعلهم يصلون ليلا لأجل أهمهم (روزا) (ماميتا) ليحلها الله في ملكوته . وذات ليلة أضافت تقول بعد الفراغ من هذه الصلاة وكان والدهم حاضرا :

– الآن يا أبنائي صلوا « أبانا الذي في السموات » و(أني ماريان)
لأجل (بابا) أيضا .

– ولكن (بابا) لم يمّت يا خالتي (تولا) .

– لا يهّم فقد يجوز أن يموت ...

– وكذلك أنت .

– هذا صحيح . (وأبانا الذي في السموات) و(أني ماريان)

لأجلي أنا اذن .

وعندما رقد الأطفال ، التفتت الى صهرها وقالت له :

– لا يمكن أن تتواصل الأمور هكذا ، فاذا لم تحد من استرسالك

فيكون علي أن أغادر هذا البيت حتى ولو علمت ان (روزا) لن

تغفر ذلك لي .

– ولكن هو ...

– ما قلت ... لأرضي أن تدنس بنظراتك هذا البيت الطاهر

حيث يمكن تنشئة أولادك بصورة أفضل . تذكر (روزا) .

– ولكن مما تعتقد اننا قد صغنا نحن الرجال ؟

– من لحم ، وفضافة .

– وأنت ألم تنظري ولو مرة واحدة ؟

– ما هذا ؟ – قالت ذلك وحولت وجهها عنه .

– لو كنت لست أمهم ، مع أن الواقع هو هكذا ، فهل من حقا

أن تلاحقيني بملاحظاتك ؟ هل من العدل أن تؤنيبي ، وأنت تملئين

البيت بشخصك ، بنظرات عينيك الناريتين ، ونبرات صوتك ،

و بمغناطيسية جسدك الحافل بالروح ، ولكنها روح ملأى بالهسد ؟

- فطأطأت (جرترووديس) رأسها . وقد اغتاظت لكنها صمتت
بينما كانت ضربات قلبها تتسارع .
- من المسؤول عن هذا ؟ قولي لي ...
- الحق معك (يا راميرو) . ولكن اذا انا ذهبت فسيفتقدني
الاطفال لأنهم يحبوني ...
- أكثر مني . — قال الأب بأسى .
- ذلك لأنني لا أكثر من تقبيلمهم ، ولا أثقل عليهم . واذا
قبلتهم ، فإنهم يعلمون ان قبلاتي أطهر ، وانها لهم وحدهم ...
- أعود فأكرر السؤال : ترى من هو المسؤول عن هذا ؟
- حسن اذن . انتظر عاما واحدا . لنتنظر الى أن ينقضي العام .
اترك لي مهلة عام واحد كي أرى نفسي بوضوح ، وترى أنت ذاتك
بوضوح ، واكفي تقتنع ...
- عام ... عام ...
- أتراها مدة طويلة ؟
- ثم ماذا بعد أن تنتهي ؟
- عندئذ سنرى ...
- سنرى ... سنرى ...
- أنا لا أعد بأكثر من ذلك .
- واذا في هذا العام ...
- ماذا ؟ واذا في هذا العام أقدمت على القيام بحماقة ...
- ماذا تقصدين بكلمة حماقه ؟

— اذا أحببت أخرى وتزوجتها .

— هذا . أبدا .

— ما أسرع ما قلت ذلك ...

— هذا ... أبدا .

— هيه ... وعود رجال ...

— واذا وقع ذلك فعلى من يقع اللوم ؟

— لوم ؟

— أجل لوم .

— هذا يعني لا غير ...

— ماذا ؟ .

— انك لم تحبها . انك لم تحب (روزا) كما أحببتك هي . كما

تمنت أن تكون هي الأرملة ...

— كلا ، هذا يعني شيئا آخر . ان يكون ...

— حسن . يكفي . (يا راميرين) . تعال الى هنا . اذهب واركض

(يا راميرين) وهكذا فتر الحوار .

وظلت هي تواصل مهمتها في العناية بأبناء أختها .

لم توافق هي على أن تنصرف ابنة أختها الى ممارسة مهنة الخياطة

وأشياء من هذا « أعمال الجنس » ؟ — كانت تقول — كلا ، لاشي

من أشغال الجنس . فمهمة المرأة هي صنع الرجال والنساء وليس

الباسهم .

وذات يوم تفوه (راميرين) بعبارة نابية تعلمها من الشارع فهم

والده بزجره فقاطعته (جرتروديس) هامة له بقولها : « كلا .
دعه . ينبغي أن تتجاهل ما سمعته - هنا ينبغي وجود جو لا كلام فيه
حتى للتأنيب » .

وذات مرة سمعت أن فتاة ظلت عزباء ، وأنها ظلت كذلك
للباس القديسين ، فقالت : « أو لباس أرواح الأطفال » .

- (توليتا هي عروسي) - قال (راميرين) ذات مرة .

- لا تنفوه بالحماقات . (فتوليتا) هي أختك .

- ألا يجوز أن تكون عروسا وأخت ؟

- كلا .

- وماذا يعني كونها أخت ؟

- كونها أخت ؟ أن تكون أخت ...

- أن تعيش في نفس البيت . قالت الطفلة .

وذات يوم جاءت الطفلة تعرض اصبعها قد لسعته نحلة . فكان اول
شيء خطر على بال خالتها أن تفعله هو اذا كان بالامكان اخراج السم
عن طريق امتصاصه بشفتيها كما كانت قد قرأت بالنسبة لاجراج
سم بعض الأفاعي . فصاح الأطفال وانضم اليهم والدهم أنهم لن يدعوا
نحلة في الحديقة . وانهم سيلاحقون النحل حتى افنائه .

- كلا . هذا لن يكون - صاحت (جرتروديس) - لن يمس

النحلات أحد .

- لماذا ؟ أمن أجل العسل ؟ - قال (راميرو) يسأل .

- لقد قلت لا يمسه أحد .

- ولكنها ليست أمهات (يا جرتروديس) .

— أعلم . أعلم ذلك جيدا . لقد قرأت في أحد الكتب التي لديك ما هي النحلة . لقد قرأته . أنا أعلم ما هي النحلّات التي تلتصق وتصنع العسل . وأعلم ما هي الملكة ، وأعلم ما هي اليعاسيب .

— اليعاسيب نحن الرجال .

— هذا واضح .

— اسمعي اذن . أريد أن انخرط في السياسة فهم يرغبون في ترشيحي

لمنصب نائب في الولاية .

— صحيح ؟ — قالت (جرتروديس) ولم تتمكن من إخفاء

سرورها .

— أيسرك ذلك بهذا المقدار ؟

— كل ما يلهيك .

— لا يزال أمامنا أحد عشر شهرا (يا جرتروديس) .

— لماذا ؟ للانتخاب ؟

— أجل للانتخاب .

— ١٠ —

والواقع هو انه كانت تتأجج في نفس (جرتروديس) عاصفة هوجاء . كان رأسها في عراق مع قلبها ، وكلاهما الرأس والقلب في عراق معها ، مع ما هو أشد عنادا ، وأعمق ، وألصق ، مع ما يشبه مح عظام النفس . وحين تكون وحدها ، عندما يغيب (راميرو) عن البيت كانت تدعو ابن هذا (وروزا) (راميرين) الذي كانت تدعوه ولدي ، فتضمه الى صدرها الأعزب المضطرب من الغم والحافل بالقلق . وأحيانا أخرى كانت تظل تتأمل صورة التي كانت

وما زالت أختها ، وكأنها تسألها اذا كانت ترضى حقاً أن تخلفها هي (جرتروديس) في حياة (راميرو) . « أجل ، قالت لي اني سأصبح أما لرجلها . زوجته الأخرى - كانت تقول لنفسها - ولكنها لم تقو على التسليم بذلك . كلا ، لم تقو على التسليم به ... ولو اني كنت في موقفها ما كنت وافقت عليه ... من أخرى ؟ كلا . من أخرى كلا ، حتى ولو بعد موتي ، ولا من أختي ... من أخرى لا . لا يمكن الا أن يكون لواحدة ... كلا . لم تستطع أن ترضى بهذا . لم تستطع أن ترضى أن يدخل بينه ، بين رجلها ، بين والد أولادها وبين ظلمها ... لم تستطع أن تقبل به . لأنه عندما يكون هو بجانبى وملاحقاً لي ، بدن الى بدن ، من يقول لي أنه عندئذ لم يكن يفكر بها ؟ وهكذا لن أكون إلا وسيلة للذكرى ... بل ما هو أسوأ ، ذكرى الأخرى . كلا . ما طلبته مني هو أن لا أترك أولادها يربون في كنف زوجة أب . وسأحول دون ذلك . واذا تزوجت (راميرو) وأسلمت له جسدي وليس روحي فحسب فسوف لن أستطيع أن أنفادى ذلك ... لأنني عندئذ أصبح زوجة أب . وفضلاً عن ذلك اذا أنجبني أولاداً من لحمي ودمي ... » وقضية الأولاد اللحميين كانت تهز مع عظام روح (جرتروديس) وتملأه برعب قدسي ، لأنها كانت كلها أمومة ، أمومة روحية .

وكانت تخلو لنفسها في مندعها لتبكي عند قدمي الأم العذراء المقدسة وتغمغم بهاتين الكلمتين : « ثمرة أحشائك ... »
وذات يوم سألتها (راميرين) وكانت تشده إلى صدرها . قال :
- لماذا تبكين يا أماه ؟ - وكانت عامته أن يدعوها هكذا .

- ولكني لا أبكي ...
- أجل ، أنت تبكين ...
- وهل رأيتني أبكي ؟
- كلا . ولكني أحس بأنك تبكين ... فأنت تبكين ...
- ذلك لأني تذكرت أمك .
- ولكن ألم تقولي اذاك أنت أُمي ؟
- أجل . ولكن الأخرى . الأم (روزا) .
- آه ، أجل . تلك التي ماتت ... تلك التي (لبابا) ...
- أجل ، تلك ، التي (لبابا) .
- ولماذا يطالب الينا « بابا » أن لا ندعوك « ماما » وانما الحالة (تولا) . وأنت تطالبين أن ندعوك « ماما » لا خالة . لا خالة « تولا » ؟ ..
- ولكن ، هل يقول (بابا) لكم هذا ؟
- أجل . لقد قال لنا انك حتى الآن لم تصبحي (ماما) وانما الحالة (تولا) . وانك لست حتى الآن أكثر من خالتنا .
- حتى الآن ؟
- أجل لقد قال لنا انك حتى الآن لست « ماما » ، وانك ستصبحين كذلك ... أجل ستصبحين أمنا بعد مضي بضعة أشهر ...
- اذن سأصبح زوجة أب لكم . قالت (جرتروديس) تخاطب نفسها لكنها لم تجرؤ على أن تبوح بتلك الفكرة الخاطئة أمام الصبي .
- حسن . لا تعر مثل هذه الأمور كبير أهمية يا بني ...
- وعندما جاء (راميرو) انتحت به ناحية وقالت له بقسوة :

— لا تكثر من التحدث مع الصبي بمثل هذه الأشياء . لا تقل له اني لست حتى الآن أكثر من خاله ، الخالة (تولا) . وانني سوف أكون أمه . هذا يفسد أخلاق الصبي . هذا يفتح له عينه على مالا ينبغي له أن يراه . واذا كنت تفعل ذلك للتأثير عليّ . اذا كنت تأتي ذلك لتحركني ...

— لقد قلت في انك عينت موعدا ...

— حسن . اذا كنت تفعل ذلك بهذا القصد ، ففكر فيما سيخلفه من رد الفعل على ولدك . انه موقف ...

— حسن . حسبك .

— لا تخيفني الكلمات . ولكني سأسكت . وانت تذكر (روزا) ،

تذكر (روزا) حبك ... الأول .

— (تولا) .

— حسبك ولا تبحث عن زوجة اب لأولادك لأن لهم أمماً .

— ١١ —

« الحاجة ماسة للريف » .. قالت (جرتروديس) ذلك وأشارت

الى (راميرو) ان من المناسب أن يذهب الجميع للاصطياف في قرية صغيرة تطل من هضبة على البحر وتحيط بها شواطئه . وبحث عن مكان نيس مطروقا كثيرا حيث يكون بوسع (راميرو) أن يلتقي برفاق يلعب معهم لأنها لم تكن ترى انه مجبر على ملازمة أولاده . وهذا نوع من الوحدة كانت (جرتروديس) تخشاه .

هنالك كانوا يخرجون يوماً الى التزهة في المرتفعات المطلة على البحر

حيث توجد أشجار القطلب ترافق (جرترووديس) (وراميرو)
الأولاد الثلاثة (راميرين ، روزا ، والفيرا) . لم تغامر قط (جرترووديس)
في الخروج وحدها مع (راميرو) حتى في ذلك المكان حيث لا يعرفهما
أحد . وعندما كانوا يبلغون مكاناً حيث يوجد نتوء من الأرض يصلح
لأن يكون مقعداً مناسباً ، كان الاثنان (جرترووديس وراميرو)
يجلسان عليه متجهين الى البحر ، بينما يكون الأولاد يلعبون على مقربة
منهما . وذات مرة عرض (راميرو) أن يجلسا على الأرض الجبلية
المعشوشبة فقالت له (جرترووديس) : - على الأرض لا . أنا لا أجنس
على الأرض فوق التراب ، وعلى الأخص بالقرب منك وأمام الأطفال ...
- ولكن مادام التراب نظيفاً ... وتوجد أعشاب ...

- قلت لك اني لن أجلس هكذا . فليس الوضع مريحاً ...
وهو أسوأ من كونه غير مريح ...

كانا وهما جالسان على ذلك المقعد يتأملان البحر ، يتحدثان عن
أشياء كثيرة ، وحين يرغب الرجل في تحويل الحديث الى مواضيع
محظورة كانا قد اتفقا مبرماً على خطرها ، فسرعان ما كان بثب اسم
(راميرين ، أو روزيتا ، أو الفيرا) على لسان الخالة . كانت هي
تتحدث عن البحر ، وكانت كلماتها التي كانت تصله ملفعة بصدى
تلمل أمواج البحر غير البعيدة ، كدقاع غامضة من غناء حول سرير
الروح . كانت (جرترووديس) تجزي أهواء (راميرو) قصد اضماها .
لم تكن توجه نظراتها اليه وانما الى البحر . ولكنها كانت ترى فيه ،
في البحر نظرة الرجل بما يشبه الأعجوبة . كان البحر الطاهر يجمع بين
نظراتهما وروحيهما .

وأحيانا أخرى كانوا يذهبون الى غابة من أشجار الكستناء .
وهناك كان عليها أن تشدد الرقابة عليه ، عليه وعلى الصغار . كذلك
وجدت هناك شجرة قد سقطت على الأرض فاتخذت من جذعها
متعدا لها .

كانت تعمل على تعويده على حياة العائلة الريفية الشريفة ، حيث
يرقد مشعبا من النور والهواء الطلق . حيث ينام وهو يسمع صوت الجدجد ،
لا تلم به أحلام ، ويوقظه صياح الديك ، وضوضاء حركة
الفلاحين والبحارة .

وعند الصباح يهبطون الى شاطئ صغير حيث يجتمع المصطافون .
فيعدل الأولاد بأقدامهم وهم حفاة مجرى ماء صغير يصب في البحر
بعد أن يمر في الرمل . وكان (راميرو) ينضم أحيانا الى لعبة الصغار
هذه .

ولكن (جرتروديس) بدأت تخشى . لقد أخطأت في حساباتها ،
اذ قد أصبح (راميرو) يتهرب من اللعب مع رفاق المصيف أكثر من
ذي قبل ، ويتحين الفرص للانفراد بابنة حميه . كان البيت الذي
يقيمون فيه أكثر من مضرب للعجور . والريف بدلا من أن يرقد ، ليس
فحسب نزوة (راميرو) وإنما شهوته بل زادها اشتعالا ، وأخذت
هي تشعر بالقلق . لقد بدأت الحياة في تلك الأرياف ، والغابات ،
وفي منعطفات الجبال تتكشف أمامها غارية . هذا بالاضافة الى انه
كان هناك حيوانات أليفة يربيهها الانسان وكثيراً ما يعاشها . وأصبحت
(جرتروديس) تتألم عندما ترى أبناء أختها يزداد ميلهم نحو الألعاب
الصيانية . الريف لا يوفر الطهارة . كلا ، لا يوفرها . الطهارة هناك

حيث تغوص الأنظار في بلجة البحر . وحتى البحر ... نسائم البحر
كانت وكأنها تخزهم .

هنتف (جرتروديس) ذات أمسية عند غروب الشمس وكانوا
يجلسون مقابلين للبحر : - أنظر ، ما أروع هذا الجمال .

كان آنثذ القمر بدرا ، وقد غطت وجهه الشاحب حمرة خفيفة
انعكست عن أمواج البحر فبدا كزهرة عملاقة منزلة في صحراء
مضطربة .

- لماذا تغنى الشعراء كثيرا بالقمر ؟ - قال (راميرو) يسأل -
ولماذا أصبح النور الرومانسي وللمحبين ؟

- لا أدري . ولكن يبدو لي انه أرض ، الأرض الوحيدة ...
ونعلم اننا لن نتمكن من الوصول اليها ... هذا ما لا يطاق . تجبها
الشمس . يطيب لنا أن نستحم بنورها . ولكننا نعلم انها غير صالحة
للسكن . وانها تحرقنا . بينما نعتقد ان من الممكن العيش على سطح القمر
بسلام وشفق دائم ، بلا عواصف لأننا لا نراه يتغير . ولكن يؤلمنا ان
الوصول اليه غير ممكن ... ولا يمكن مسه ...

- نحن نرى على الدوام نفس الوجه ... هذا الوجه المكتئب الوقور ..
يعني دائماً « لا » . انه أحيانا يستره بصورة تدريجية . ويظلمه أحيانا
أخرى ، وقد يغدو كالمنجل ...

- أجل . - وعندما قالت (جرتروديس) ذلك يبدو انها كانت
تصغي لتفكيرها ، دون أن تعي تفكير رفيقها وان كان الواقع خلاف
ذلك . انه يرينا نفس الوجه لأنه ثابت ووفي ... ولا تعلم شيئا عن
الجهة الأخرى ... وكيف هي ...

— هذا يضاف الى لغزه .

— قد يكون ... قد يكون ... اتصور ان هنالك من يتشهى الوصول الى القمر ... المستحيل ... لرى كيف هو الوجه الثاني ، لنعلم ونفسر وجهه الآخر ...
المظلم ...

— المظلم ؟ يبدو لي وأنه ليس كذلك . حين نرى هذاخيرا يكون الوجه الثاني مظلما . أو أنني لا أعرف شيئا عن هذه الأشياء ، أو أنه عندما يصبح هذا مظلما أي في بداية الربيع الأول ، فان الوجه الثاني يكون بدرًا كاملا ...

— لمن ؟

— كيف لمن ؟

— أجل . عندما يكون الوجه منيراً ... فمن ينير ؟

— السماء . وكفى . أم ان الله قد أبدع القمر لانارتنا ليلا نحن أبناء الأرض ليس الا ؟ أو لكي نتداول هذه السخافات ؟

— حسن اذن ، انظري (يا تولا) ...

(روزيتا) .

ولم تترك له مجالاً لانهاء تعليله لصعوبة مس القمر ومدى اتساعه . وعندما حدثته عن وجوب العودة الى المدينة وافق على ذلك بمنتهى السرعة . تلك الفترة التي قضوها في الريف بين الجبال والبحر كانت غير مثمرة بالنسبة لأهدافه . « لقد أخطأت » — كان يقول مخاطباً نفسه — انها هنا أكثر ضمانا من هناك ، من البيت . هنا تستر بالجبل ، بالغابة ، وكأن البحر بمثابة الترس لها . هي هنا كالقمر لا يمكن مسها ،

في حين ان الهواء المشبع بالملوحة المتسربة عبر الشمس يلهب الدم ...
وهنا تبدو لي انها خارج مدارها ، وانها تخشى شيئاً ما . تحيا حياتها
حذرة ، وقد يقال انها لا تنام... » ومن جهتها هي كانت تقول :
« كلا ، الطهارة ليست في الأرياف . الطهارة زنزانة دير ومدينة .
الطهارة تنمو حيث يتجمع الناس في أماكن متلاصقة زيادة في الانفراد .
المدينة هي دير ، ومدرسة للراهبات . هنا الأرض حيث يرقد الجميع
تقريباً توحدهم مع الحيوانات التي هي أفاعي جحيم أخرى ... فالى
المدينة ، الى المدينة .

كان ديرها في المدينة ، مسكنها ، وفيه زنزانتها . هناك تستطيع
ارقاد صهرها بصورة أفضل . آه . ان بالوسع القول عنه ما قالته
القديسة (تريزا) عن صهرها (خوان دي أو فال) زوج (دويانا
خوانادي أو مادا) - وكانت (جرتروديس) تدمن قراءة ما كتبته
القديسة تلك التي تقول : « انه ميال للأموال الصيانية ... » كيف
يمكن جعله صيانيا ؟

- ١٢ -

وأخيراً ضاقت (جرتروديس) بوحدها فأحبت أن تحمل غمها الى
معرفها الأب (الفاريس) وانما ليس مرشدها الروحي . لقد أبت هذه
المرأة أن تكون مقادة ، وعلى الأخص أن يكون قائدها رجل . لقد
نظمت حياتها واعتقاداتها الدينية مما كانت تسمعه حولها ، وما تقرأه ،
ولكنها كانت تفسره على طريقته هي . وكان خالها المسكين (دون
بريمتيغو) الكاهن الساذج الذي كفل تربية الاختين ولقنهما تعاليم
الدين المسيحي على طريقة (مازو) يكن تقديراً أكبر لذكاء ابنة اخته

(تولا) ويعجب بها . وكان يقول لها : « اذا سلكت سلك الرهينة فستصبحين القديسة (تريزا) الثانيه ... ما أروع ما يخطر لك يا بنية ... » وأحيانا أخرى كان يقول لها : « يبدو لي أن فيما تقولية يا بنية بعض نفحات المرطقة . هوم . لا أدري لا أدري ... اذ ليس ممكنا أن يوحى اليك ملاكك الحارس بالمرطقة ، ولكن هذا يبدو لي ك... لا أدري ... وكانت تجيبه وهي تضحك « أجل يا خالي ، ان ما يخطر لي شبيه بالسخافات وما دامت تقول ان رائحة المرطقة تفوح منها فسوف لن أعود للتفكير فيها » . ولكن من يستطيع تقييد الفكر ؟

كانت (جرتروديس) تشعر دائما انها وحدها . وحدها يعني انها بحاجة لمن يساعدها ، ولكنها لمساعدة الغير لم تكن وحدها . كانت كاليثيمة المثقلة بالأولاد . وكانت كالعكاز لسائر المحيطين بها . ولكن اذا ضعف ساقها . واذا عجز رأسها عن تثبيتها على طريقها ، واذا بدأ قلبها يضطرب ويضعف فمن سيسندها هي ؟ من سيكون لها بمثابة العكاز ؟ لأنها ، وهي المفعمة بالاحساس والشعور ، والأهواء الفضلى ، والأمومة لم تكن تشعر بالبنوة . فكانت تطرح على نفسها هذا السؤال : « ترى أليست هذه كبرياء ؟ » .

وأخيرا لم تطق تحمل هذه الوحدة ، فقررت أن تبت غمها لمعرفة الأب (الفاريس) . وقصت عليه ما عرضه عليها (راميرو) ، وحتى ما قاله للأولاد أن لاينادوها الآن « بأمي » ، والدوافع التي تحملها على المحافظة على طهارة ذلك البيت ، وانها لا ترغب في أن تسلم نفسها لأي رجل ، وانما هي ترغب في الاحتفاظ بنفسها لما هو أفضل ، وأن تكرر نفسها لأولاد (روزا) .

– ولكنني أرى ما رأيته صهرك أمرا طبيعيا – قال الأب الروحي
الطيب .

– لست أتحدث عن صهري وإنما عن نفسي أيها الأب الطيب .
وأعتقد أنني ما فزعت لسيادتك بحثا عن زواج ...

– كلا . كلا يا بنتي . كلا .

– ذلك لأنهم يقولون إن غرفة الاعتراف توفر الزواج . وإن
الآباء يتخصصون بأمور الزواج ...

– الشيء الوحيد الذي أقوله الآن يا ابنتي ، إن من الأمور الجذبة
طبيعية أن يعود صهرك للتفكير بالزواج وهو الأرملة والقي والقوي .
وأكثر من طبيعي بل قدسي أن يبحث عن أم لأولاده ...

– أم أخرى ؟ إنها موجودة .

– أجل . ولكن إذا ذهبت هذه ...

أذهب ؟ أنا ؟ أنا مجبرة بهؤلاء كأهمهم لو كانت حية .

– وهذا يفتح مجالا للقبيل والقال .

– يا أبت . لقد قلت أنني لا أقيم وزنا لما يقولون ...

– وإذا كنت قد فعلت ذلك متعمدة كي يتحدث الناس ؟ أمتحني

نفسك فقد يكون وراء ذلك رغبة في مواجهة اهتمام الآخرين ،
وتحدي الرأي العام ...

– وإذا كان ذلك كذلك . فماذا ؟

– إذا كان ذلك فهو خطيئة . وعلاوة على ذلك فالقضية غير

هذا .

– وما هي القضية ؟

– القضية اذا كنت تحببته ام لا . هذه هي القضية . هل تحببته
أم لا ؟

– كزوج كلا .

– ولكن هل ترفضينه ؟

– أرفضه ... كلا .

– ولو أنه حين تقدم من أختك المتوفاة تقدم منك ...

– يا أبت ، يا أبت .. قالت ذلك بصوت عال .

– أجل . هناك ينبغي أن ينظر ...

– يا أبت ، هذا ليس خطيئة ...

– ولكن المطلوب الآن قيادة روحية ، والتماس نصائح ...

أجل ، هذه خطيئة ... قد يكون خطيئة ... وقد يكون ثمة غيره

قديمة ...

– يا أبت .

– يجب التعمق في القضية . فقد لا تكوني قد ساحتبه .

– لقد قلت لك يا أبت انني أحبه ولكن ليس كزوج أحبه

كأخ . وكأكثر من أخ . كأب لأولادي ، لأن هؤلاء ، أولاده هم

لي ، من أعمامي ، من كل قلبي . ولكن كزوج لا . أنا لا أستطيع

أن أشغل المكان الذي شغلته أختي في سريرته ... وفضلاً عن ذلك

فأنا لا أريد ، ولا أستطيع أن أجعل لأولادي زوجة أب ...

– زوجة أب ؟

– أجل زوجة أب . اذا انا تزوجته ، تزوجت أب أولاد قلبي

أكون قد أوجدت لهؤلاء زوجة أب . وفضلاً عن ذلك إذا أنا رزقت
منه أولادا من دمي ولحمي . هذا ... أصبح الآن غير ممكن ...
- أصبح الآن ...
- أجل . لأن لدي أولاد قلبي ... أولادي ...
- ولكن فكري فيه ، في صهرك ، وحالته ...
- أن أفكر ؟ ...
- أجل . ألا تأخذك رافة به ؟
- أجل . أنا أرا أف به ، ولهذا فأنا أعينه واساعده . هو بمثابة
أخ آخر لي .

- تساعدينه ... وتعينينه ...
- أجل أساعده وأعينه ليصبح أبا ...
- ليصبح أبا ... ليصبح أبا ... ولكنه رجل
- وأنا امرأة .
- ضعيفة ...
- أنا قوية ؟
- أكثر من اللازم
- أكثر من اللازم ؟ والمرأة القوية ؟
- يا ابنتي هذه القوة قد تصبح أحيانا صلابة وعنفا . وانت قاسية
عليه ، جد قاسية . لا تحبينه كزوج ؟ وما أهمية ذلك . في الزواج
لا حاجة لمثل ذلك . كثيرا ما يكون على المرأة أن تتزوج رجلا رافة
به ، أو لانقاذه من الوحدة ، أو لخلاصه ، لخلاص روحه ...

- ولكني لا أدعه وحده ...
- أجل أنت تدعيه وحده . واطنك تدركين ما أعني . دون أن أوضح ذلك ...
- أجل ، أجل أدركه ، ولكني لا أريد أن أفهمه . ليس وحده . أنا التي هي وحدها . وحدها ... وحدها ... ودائما وحدها ...
- ولكنك تعرفين القول القائل : « الزواج خير من العناق ... » .
- ولكني لا أعانق نفسي .
- ألا تنذمرين من الوحدة ؟
- ليست وحدة معانقة . ليست الوحدة التي تعنيها يا أبت . كلا . ليست هي . أنا لا أعانق ذاتي ...
- وإذا كان هو يعانق ؟
- فليترد بحب صغاره والعناية بهم .
- حسن . وما دمت قد أصبحت تفهمين مني .
- بزياده .
- وإذا كان لا ، فسأطرح لك بوضوح ان صهرك يوشك أن يتعرض للخطر . وإذا وقع هذا فأنت المألومة .
- أنا المألومة ؟
- الأمر واضح .
- أنا لأراه على شيء من الوضوح ، لأنني لست رجلاً ...
- لقد قلت لي أن مخاوفك من زواجك مع صهرك سببه الخوف من انجاب أولاد منه . أليس كذلك ؟

- أجل . هو هكذا . اذا رزقنا بنينا فسأكون أنا زوجة أب بالنسبة
للذين تركتهم لي أختي شئت ذلك أم أبيت .
- ولكن الزواج لم يوضع لانجاب الأولاد فحسب .
- لأجل الزواج وإسعاد الأزواج لينجبوا أولاداً للسماء .
- اسعاد الأزواج ... أفهمين ذلك ؟
- تقريبا ...
- كي يتلذذوا في الحياة بلا خطيئة .
- بت الآن أقل فهما .
- حسن . وما هو العلاج الشافي من الحسية ؟
- كيف ؟ وما هو هذا ؟ ماذا ؟
- ولكن لماذا انفعلت هكذا ؟ ... لماذا انفعلت ؟
- ما هو العلاج الشافي من الحسية ؟ الزواج أو المرأة ؟
- الاثنان ... المرأة ... والرجل ...
- ولكن يا أبت لا . لا . لا . لا . أنا لا أرضى أن أكون علاجاً
لشيء . ما هذا . أحب علاجاً . وعلاجاً شافياً لهذا . لا . أنا أعلي نفسي
عن ذلك .
- ولكن مادام ان ...
- لا . لم يعد من فائدة . لو أنه لم يرزق أولادا من أختي فلربما
كنت أتوجه لأرزق أولادا ... لأرزق أولادا منه ... ولكن علاجاً ؟
ولمثل هذا ؟ أنا علاج ؟ كلا .
- ولو انه طلبك قبل أن يطلب أختك ...

— طلبني أنا ؟ من قبل ؟ عندما عرفنا ؟ يا أبت دع الحديث عن مثل هذا فمن العسير أن نتفاهم . وأرى اننا نتكلم لغات مختلفة فأنا لا أفهم لغتك ، ولا أنت تفهم لغتي .

وهنا هبت واقفة من جانب كرسي الاعتراف . وقد تعذر عليها المشي اذ كانت ركبتها قد أصبحت تؤلمها لطول الركوع ، كما كانت مفاصل روعها قد أصبحت تؤلمها ، وازداد شعورها بالوحدة ، وكانت تخاطب نفسها بقولها : « كلا ، انه لم يفهمني . انه لم يفهم ما أعنيه . أولاً وأخيراً هو رجل . ولكن هل أفهم أنا من نفسي ؟ ترى هل أفهم ؟ هل أحبه أم لا ؟ أوليس هذا تعالياً ؟ أليست تلك نزوة الأرمني الذي لم يلق بنفسه في المستقع لانقاذ رفيقه مخافة أن يتسخ ؟ ... لست أدري ... لست أدري ... »

— ١٣ —

وفجأة لاحظت (جرتروديس) ان صهرها قد طرأ عليه تبدل وأصبح وكأنه رجل آخر ، وأنه يخفي بعض الأسرار ، ويتحفظ ، ويتأنى ويكثر من الخروج من البيت . ولكن هذا التغيب المستمر عن البيت لم يحدعها . فالسر يكمن في البيت . وبفضل صبرها وحذقها فاجأت نظرات تعارف حميمي تبادلها (راميرو) مع الخادمة .

(مانولا) ابنة التاسعة عشرة من عمرها ، وخريجة دار العجزة ، التي تبدو عليها سيماء المرض لاصفرار لونها ، وذات العينين اللامعتين المستكينتين ، والوادعتين ، القليلة الكلام ، التي تبدو دائماً حزينة . كانت تنادي (جرتروديس) يا سيدة ، وكانت تضرب أمامها . وقد طلب اليها (راميرو) أن تناديا « يا آنسة » .

— كلا ناديني هكذا يا سيدة ، وليس يا آنسه ...

وبصورة اجمالية فقد كانت الخادمة تخشاها وتتجنب مجلسها
خجلا أو رهبة . وكانت تتجنب الضغار وقليل ما توجه كلمة اليهم .
وهؤلاء من جهتهم كانوا يظهرون (لمانولا) لا مبالاة شبيهة بالاحتقار
وحتى انهم في بعض الأحيان كانوا يهزأون منها بالكلام مما جعلها
تحذر . وكانت (جرتروديس) تخاطب نفسها قائلة : « الغريب انها
بالرغم من كل هذا لا يريد أن تذهب .. هذه الصبية تشبه الهرة »
وحتى انها تكهنت بما يمكن أن تخيئه .

وذات يوم فاجأت الفتاة المسكينة عند خروجها من مخدع (راميرو)
الذي تسمية السيد ، وقد احتقن وجهها ، وتصاعدت أنفاسها .
فتبادلتا النظرات الا ان الخادمة حولت نظرها . وجاء حادث آخر ،
اذ جاء الصبي (راميرين) يقول لحالته :

— قولي لي يا أماد (تولا) هل (مانولا) هي أختنا أيضا ؟

— لقد سبق وقلت لكم ان جميع الرجال والنساء اخواننا .

— أجل . ولكن مثلنا نحن الذين نعيش معا ...

— كلا . ومع انها تعيش معنا ، فهذا ليس بيتها ...

— واين هو بيتها ؟

— بيتها ؟ لا تحاول التعرف عليه . ولماذا سألتني هذا السؤال ؟

— ذلك لأنني رأيت (بابا) يقبلها ...

وفي تلك الليلة بعد ان أرقدوا الصبيان قالت (جرتروديس)

لراميرو (:

- يجب أن نتكلم .
- ولكن مازال أمامنا ثمانية أشهر ...
- ثمانية أشهر ؟
- ألم تقولي منذ أربعة أشهر ان المهلة عام كامل ؟
- لست أبغي التحدث بمثل هذا يا رجل وانما بما هو أهم .
- فتوقفت دقائق قلب (راميرو) وشحب لونه .
- أكثر أهمية ؟
- أجل أكثر أهمية . عن أولادك وتربيتهم . وعن خريجة الملجأ هذه المسكينة ، التي أتق من انك تتعدى الحدود معها .
- واذ كان ذلك كذلك فمن المعلوم ؟
- وتساءل أيضا ؟ اهلك تريد أن تحملي تبعة ذلك ؟
- الأمر واضح كل الوضوح ان نعم .
- حسن اذن (يا راميرو) . لقد انتهت مهلة العام . ولم يعد ثمة مهلة . لا يمكن أن يكون . لا يمكن أن يكون . الآن أنا ذاهبة ، وليقل القانون ما يشاء . — سأخذ الأولاد معي ، يعني انهم سيذهبون معي .
- ولكن هل أصابك مس من الجنون (يا جرتروديس) ؟
- المجنون هو أنت .
- ولكن ماذا تريدان ؟ ...
- لا شيء . فاما أنا أو هي . اما أن أذهب ، أو تطرد هذه الخادمة من البيت .
- وأعقب ذلك فترة صمت مغمه .

- ... لا أستطيع أن أطردها (يا جرترووديس) . لا أستطيع أن أطردها . اذ الى أين ستذهب . ألى المنجأ مرة ثانية ؟
- نستخدم في بيت آخر .
- لا أستطيع أن أطردها (يا جرترووديس) لا أستطيع أن أطردها . —
- قال ذلك وانفجر الرجل باكياً .
- مسكين يا رجل — غمغمت قائلة وقد وضعت يدها فوق يده —
- لقد أحزنتني .
- الآن . هيه . الآن ؟
- انك لشير اشفاقي ... لقد أصبحت مستعدة لتحمل كل شيء ...
- (جرترووديس . تولا) .
- ولكنك قلت انك لا تستطيع طردها ...
- هذا صحيح . أنا لا أستطيع طردها . — قال هذا وبدأ عليه الانهالك .
- ماذا اذن ألا تذهب وحدها ؟
- كلا ، لن تذهب وحدها .
- والاشهر الثمانية الباقية من المهلة ؟
- (يا تولا) أنا ضائع . أنا ضائع .
- كلا . هي أكثر ضياعاً . اليتيمة ربيبة الملجأ التي ليس لها ما يحميها .
- هذا صحيح . هذا صحيح .
- لا تبتئس (يا راميرو) ، فللقضية علاج سهل ...
- علاج ؟ وسهل ؟ — قال هذا وتجراً على أن سدّد نظراته الى وجهها .

- أجل . تزوجها .
- ولو أن صاعقة انقضت عليه وجرحته لما كان تأثيرها عليه أكثر من تلك الكلمات البسيطة .
- أن أتزوج . أن أتزوج الخادمة . أن أتزوج ربيبة الملجأ ؟
- وتقولي لي أنت ذلك ؟ ...
- من سواي سيقوله لك . الأم الحقيقية لأولادك أنا اليوم .
- وتسيبهم زوجة أب ؟
- كلا ، هذا لا . ذلك لأنني سأظل أمهم . وأنت تهب والدا لذلك الذي سيكون ولدك الجديد ، وأن تهبه أما أيضا . ربيبة الملجأ هذه لها الحق في أن تكون أما . وعليها واجب أيضا . لها الحق بولدها وبوالد وألدها .
- واكن (يا جرتروديس) ...
- تزوجها ، قلت لك . أجل وتقول ذلك لك (روزا) – وعندئذ رن صوتها كالجرس – زوجتك (روزا) تقول لك بلساني تزوج ربيبة الملجأ (مانولا) .
- يا سيدة . – سمع صوت ينادي يشبه الأنين . وكانت الفتاة المسكينة تسمع كل ذلك وهي مكبة على الموقد دون أن تغادر مكانها . وأعدت النداء « يا سيدة » مرة ثانية ، الا أنها لم تغادر مكانها .
- تعالي اتي هنا ، أو أحضر أنا لتأتي .
- اكراما اله – قال (راميرو) متوسلا .
- وجاءت الفتاة وهي تستر وجهها الباكي بيديها .
- أكشفي عن وجهك . وانظري إلينا .

- كلا يا سيدة ، كلا .
- أجل . انظري الينا . هنا سيدك ، هنا (راميرو) الذي يطلب سماحك لما فعله معك .
- سماحي يا سيدة . ولك ...
- كلا . هو يطلب سماحك وسيتزوجك .
- ولكن يا سيدة . — هتفت المسكينة في حين صاح (راميرو) : « ولكن يا جرتروديس » .
- لقد قلت سيتزوجك . هكذا تريد (روزا) . ليس ممكنا أن تظلي هكذا لأنك أصبحت ... كلا ؟ هذا هو ؟
- أجل ، أعتقد ذلك يا سيدة ولكني ...
- لا تبكي هكذا . ولا تقسمي ايمانا . أنا أعلم انك لست الملوثة ...
- ولكن من الممكن تسوية ...
- تعلم (مانولا) جيداً اني لم أفكر قط في التخلي عنها . وكنت سأجد لها مكانا ... — قال (راميرو) .
- أجل يا سيدة أجل . انه ليسرني ...
- كلا . لا ينبغي أن تسري بما ستقولينه . أو أن الأفضل هنا أن يكون (راميرو) هو الذي لا يستطيع أن يسر بهذا . أنت ربيت في الملجأ ، أليس الأمر كذلك ؟
- أجل يا سيدة .
- ولكن ولدك سوف لن يربى فيه . ان له الحق في أن يكون له أب . أب . وسيكون له . والآن اذهبي ... اذهبي الى مخدعك ، ، ودعينا .

- وعندما أصبح (راميرو) وهي وحدهما قالت له :
- أظن انه لم يبق لديك مجال للشك ...
 - ولكن ما تحاولينه مجرد جنون (يا جرتروديس) .
 - الجنون ، وأكثر من الجنون هو العار الذي تنويه .
 - على الأقل استشيرني بذلك الأب (الفاريس) .
 - لن أستشيريه . لقد استشرت (روزا) بالأمر .
 - ولكن ما دامت انها قالت لك لا توجدوا زوجة أب لأ ولادي ...
 - لأولادها ؟ لأولادك .
 - أجل . أولادنا ...
 - وسوف لن أوجد لهم زوجة أب . سأظل الأم لهم ، لأولادنا ،
 - ولكن لأولاد هذه ...
 - لن يمنعها مانع من أن تكون أما ...
 - أجل أنت . اذا لم تتزوجها . هذا لا يعني ان تصبح أما ...
 - ولكن هي ...
 - ماذا ؟ لأنها لم تعرف زوجتك تظن انها سوف لن تكون كما
 - ينبغي ؟
 - واكن تأملي كيف هي هذه الطفلة ...
 - الذي كان ينبغي أن يتأمل هو أنت ...
 - هذا جنون ... جنون ...
 - ما قد كان هو الجنون . والآن فكر في الأمر . اذا كنت لا
 - تقوم بما يجب عليك ، فأنا سأثير الفضيحة . وسيعرفها الجميع .
 - (جرتروديس) .
 - تزوجها . وينتهي الأمر .

بات يخيم على ذلك البيت حزن عميق بعد زواج (راميرو) من ربيبة الملجأ . وهذه أصبحت تبدو أكثر من الخادمة والمربية . كما أصبحت (جرتروديس) أكثر من ربة البيت . وكانت هذه تعمل جاهدة كي تقصي الأولاد عن المتزوجين الجدد . وكان هؤلاء يتجنبون قدر المستطاع الدنو من ذلك المخدع الخاص . كان لابد من اتخاذ خادمة أخرى ، وتفسير ذلك يعود للصغار .

ولكن كيف يفسرون لهم جلوس الخادمة القديمة الى المائدة مع أهل البيت لتناول الطعام ؟ وهذا ما أرادته (جرتروديس) .

— اكراما لله يا سيدة . — كانت تقول (مانولا) متوسلة — لاتسبني لي ما يورث الحجل ... تأملي انني أشعر بالحجل ... تحمليني على أن أجلس الى المائدة مع الأسياد ، وخصوصا مع الأولاد ... وأن أخاطب السيد بصيغة المفرد — أنت — لن يكون هذا .

— خاطبيه كما تشائين . ولكن من الضروري أن يعلم الأولاد الذين تخافينهم كثيرا انك من العائلة . وحين يتم ترتيب ذلك فسوف لن يفاجئني مؤخر عيونهم المظاهر الحميمة . والآن ينبغي أن تزدادي حذرا لأن الرغبة القديمة في التستر عنهم قد نمت عليك .

— كان حمل (مانولا) مزعجا جدا . ولم يقو تركيب جسمها الضعيف على تحمله بسهولة . وكانت (جرتروديس) لا تنفك تطلب اليها أن تخفي عن الأولاد وضعها غير الطبيعي .

كان (راميرو) يعيش مستسلما لليأس . وبصورة أكثر لرغبات (جرتروديس) . وكان يقول مخاطبا نفسه :

- بت الآن أدرك انه لم يكن ثمّة علاج آخر . ولكن ...
- أَيْثقل ذلك عليك . – قالت (جرتروديس) تسألّه ...
- لأنني تزوجت كلا . ولكن لزواجي مرة ثانية فنعم .
- ليس هذا وقت التفكير في مثل هذا . ولنواجه الحياة .
- آه ، لو رغبت أنت (يا تولا) .
- لقد أجلتك عاما فهل أحسنت استعماله ؟
- ولو حافظت عليه كما كنت ترغيبين . فهل تخبريني ما عساه سيتم في نهايته ؟ فأنت لم تعدي بشيء .
- ولو كنت قد وعدتك بشيء فان ما كان سيكون . كلا فلربما كان ما هو أسوأ . في مثل ظروفنا لو وعدتك بشيء ، أو لو طلبت اليك مهلة لعقد قراننا اذن لكان أسوأ .
- ولكن لو انني حافظت على المهلة كما كنت ترغيبين . فما عسالك كنت فاعلة ؟
- لا أدري .
- لا تدرين (يا تولا) ... لا تدرين (يا تولا) ...
- كلا . لا أدري . أقول لك انني لا أدري .
- ولكن شعورك ...
- فكر بزواجك . . فلست ادري اذا كانت ستجتاز المرحلة الحرجة التي وضعتها فيها . المسكينة جد ضعيفه ، والخوف مستول عليها ... انها مازالت خائفة من كونها زوجتك وربة بيتك .
- وعندما آن أوان الوضع الخطر أظهرت (جرتروديس) ما كانت

- قد أظهرته من التفاني عند ولادة أختها ، وتناولت الطفل الهزيل الضعيف .
- كانت هي التي ألبسته الثياب ، وهي التي عرضته على والده .
- ها هو هنا يا رجل . ها هو هنا .
- ياله من مسكين . — هتف (راميرو) يقول ، وقد أحس وكأن أحشائه تذوب اشفاقا على تلك الكتلة اللحمية الحية .
- هو ولدك . ولد آخر ... ولد آخر قدم الينا .
- قدم الينا ؟ قدم اليك أيضا ؟
- أجل الي أيضا . سوف لن أكون له بمثابة زوجة أب ، أنا التي تحاول أن لاتكون للآخرين ذلك .
- وهذا ما حدث اذ لم تفرق بينهم .
- انك لقديسة (يا جرتروديس) — كان يقول لها (راميرو) —
- قديسة صنعت خطاة .
- لا تقل ذلك . أنا خاطئة ، وأجتهد كي أخرج قدسين من أولادك ، ومن زوجتك .
- زوجتي ؟
- زوجتك ، نعم . أم ولدك . لماذا تظهر نحوها هذا الاستخفاف المطعم بالتحب وكأنها عبء عليك ؟
- وماذا تريدني أن أفعل . أتريدني أن أغرم بها ؟
- ألم تكن مغرما بها عندما أغويتها ؟
- بمن ؟ بها هي ؟
- أنا أعلم . أنا أعلم ان لا . ولكن المسكينة تستحق ذلك .
- ولكنها الأقل بين النساء . اذا لم تكن لا شيء .

- كلا . يا رجل كلا . هي متفوقة . انها أكثر مما تظن انت .
لم تعرفها بعد .
- أجل ، هي عبدة .
- قد تكون كذلك . ولكن من الواجب تحريرها ... يستولي
الخوف على المسكينة ... لقد ولدت خائفة ... واستغليت أنت خوفها...
— لا أدري كيف كان ذلك . لا أدري ...
- هكذا أنتم الرجال : لا تدرون ما تفعلون حتى ولا تفكرون
فيه . تأتون الأعمال دون تفكير ...
- أحيانا كثيرة يكون التفكير فيها أسوأ من فعلها .
- ولماذا تقول ذلك ؟
- لا لشيء . لا لشيء ...
- أنت بلا ريب تعتقد اني لا أفعل شيئا سوى التفكير .
- كلا . أنا لم أقل اني أعتقد ذلك ...
- أجل . انت تعتقد اني لست سوى تفكير ...

— ١٥ —

- عادت (مانولا) المسكينة العبدة ، ربيبة الملجأ فحملت من جديد .
وقد ساء هذا (راميرو) .
- كأن ما لدينا غير كاف . — كان يقول .
- وأنا ما عساي أفعل . — كانت المظلومة تقول .
- قبل كل شيء أنت أردت أن يكون ذلك — قالت (جرتروديس) .
وعلى حده كانت تعود لتأنيبه لمعاملة زوجته باستخفاف مشوب بالاشفاق ،
وكانت المسكينة تتحمل وضعها أكثر من الأخرى .

- أخاف على حياة هذه المرأة المسكينة . — ... قال (دون خوان)
الطبيب الأرملة الذي كان يعودها من وقت لآخر .
— هل تعتقد أنها في خطر ؟ — سأته (جرتروديس) .
— هذه الفتاة أحشاؤها ضعيفة ، وقد استهاكت حيويتها ، ويمكن
أن يكون بوسعها التحمل الى أن تضع جنينها . هذا أقصى حد .
والطبيعة حكيمة .
— الطبيعة . كلا . العذراء الأم المقدسة (يا دون خوان) قالت
(جرتروديس) تقاطعه .
— كما تريدن . أنا أروض دائما لرأيك الصائب . ولكن كما
قلت الطبيعة أو العذراء وكلا القولين هما واحد في نظري ...
— كلا . العذراء هي العناية ...
— حسن اذن الطبيعة أو العذراء أو العناية أو ما كان تعمل
على أن تتحمل الأم الى أن تضع مولودها الجديد . هذا الطفل البريء سيكون
لأمه المسكينة المقبلة بمثابة تعويذة ضد الموت .
— وبعثد ؟
— بعثد ؟ ربما كان عليك أن تربني وحدك بالاستعانة بمرية ،
مولودا جديدا . لديك أربعة ، وستتحمين أثقال الخامس ...
— سأتحمل عب كل ما يبعثه الله لي .
— ولربما ، ولا أقول تأكيدا ، سوف لن يتأخر كثيرا ، اذ يصبح
(دون راميرو) حراً — قال هذا وسدد نظرات عينيه الزرقاوين الى
وجه (جرتروديس) . فأضافت هذه قائلة متظاهرة أنها لم تفهم . —
وسيكون على استعداد للزواج مرة ثالثة .

- سيكون ذلك نوع من البطولة ...
- يبدو ان نفحات البطولة تنقصك أنت الرجل الأرملة وبدون أولاد .
- آه . (يادونيا جرتروديس) . لو كان بوسعي أن أتكلم .
- اذن أسكت .
- أنا ساكت .
- وتناول يدها واحتفظ بها لبعض الوقت ، ثم ربت لها بالأخرى على يدها وأضاف وقد أطلق زفرة حرة . – كل رجل هو عالم كامل (يا جرتروديس) .
- وكل امرأة هي قمر . أليس ذلك كذلك (يا دون خوان) ؟
- كل امرأة بوسعها أن تكون سماء .
- فقالت (جرتروديس) في نفسها : – هذا الرجل يغازاني غزلا افلاطونيا .
- في حين كان سائر من في البيت يخاف على حياة المسكينة (مانولا) ، وكانت العناية موجهة إليها ، في هذا الوقت سقط (راميرو) طريح الفراش اذ قد أصيب بالتهاب رئوي . فأصبحت ربيبة الملجأ المسكينة بما يشبه البله .
- دعيه لي (يا مانولا) – قالت لها (جرتروديس) – اعطني بنفسك وبجملتك ، ولا تحملي هم العناية بزواجك ، فقد يضرك ذلك .
- ولكن يجب علي ...
- يجب عليك أن تعني بمن هو لك .
- وزوجي ، أليس هو لي ؟

- كلا . الآن لا . الذي هو لك الآن ، ولديك الآتي قريباً .
- واشتدت وطأة المرض على (راميرو) .
- بت أخشى من مضاعفات على القلب . — قال (دون خوان) —
- فقلبه ضعيف . وهذا مفهوم . فالهموم والمنغصات .
- وهل سيموت (يا دون خوان) ؟ — قالت (جرتروديس)
- تسأل وقد استبد بها الحزن .
- كل شيء ممكن ...
- انقذه (يا دون خوان) . انقذه . كيفما كان ...
- وما الذي أتمناه أكثر من ذلك ؟ ...
- آه . يا للتعاسة ، يا للتعاسة . — للمرة الأولى شوهدت تلك
- المرأة تجلس وقد أصيبت بدوار .
- قال الطبيب بعد أن استردت (جرتروديس) وعيها . في الواقع
- ان ترك أربعة أطفال لأمر مريع . ماذا قلت ؟ أربعة ؟ قد يجوز أن
- يكونوا خمسة . وأيضاً هذه الأرملة وهي على مثل هذه الحالة ...
- هذا أمر بسيط (يا دون خوان) لمثل هذا أكفي أنا وأزيد .
- يا للتعاسة ، يا للتعاسة .
- وذهب الطبيب وهو يقول : « هذا واضح . ابنة الحمي هذه
- كانت تتوقع أن يصبح صهرها حراً لها . كل حي هو عالم تام ، وبعضهم
- عدة عوالم . ولكن أية امرأة هي . أنها امرأة تامة ، وكم هي قوية ،
- وما أفظنها . ويا لعينيها ، أنهما تطلقان ناراً .
- وذات أمسية نادى (راميرو) ابنة حميه (جرتروديس) ، وكانت
- الحمي قد هادنته قليلاً ، وتوسل إليها أن تغلق الباب ، وقال لها :

« أنا أموت وما من علاج . أشعر وكأن قلبي يريد أن يتوقف عن الحفقات . وعلى الرغم من كل هذه الحقن فأنا سأموت ...

— لا تفكر في مثل هذا (يا راميرو) ...

واكنها هي كانت ترى أن الموت قريب منه .

— أنا أموت وقد حان الوقت لأبوح لك بالحقيقة (يا تولا) .

أنت زوجتي (روزا) .

— لأنك لم تصمم . وكنت تؤجل ...

— وهل تدرين لماذا ؟

— أجل . أعلم ذلك (يا راميرو) .

— في بداية الأمر ، عندما رأيتهما ، عندما رأيت الأختين أحبت

(روزا) التي كنت أراها دائما عن بعيد . ولكن عندما اقتربت وبدأت

أختلق اليكم رأيك أنت ، لأنك أنت الوحيدة التي أراها عن قرب .

هي كانت تمحوك عن بعد ، وأنت كنت تمحينها عن قرب .

— لا تتحدث بمثل هكذا عن أختي . عن أم أولادك .

— كلا . أم أولادي هي . أنت . أنت . أنت .

— لا تفكر الآن الا (بروزا) (ياراميرو) .

— التي سأجتمع بها قريبا . أليس كذلك ؟

— من يدري ... فكر في الحياة ، وفي أولادك ...

— ستبين أنت لأولادي . أنت أهمهم .

— فكر في (مانولا) ، في المسكينة (مانولا) ...

— تلك المهلة (يا تولا) تلك المهلة المشؤومة .

فتورمت عينا (جرتروديس) من البكاء .

- (يا توليا) ... صاح المريض وقد بسط ذراعيه .
- نعم (يا راميرو) نعم . – هتفت هي وقد أَلقت بنفسها بين ذراعيه واحتضنته . وتلاقي الفمان ولبثا كذلك وهما يجهبشان بالبكاء .
- أنغفرين لي كل شيء (يا توليا) ؟
- كلا . (يا راميرو) كلا . أنت الذي يجب عليك أن تغفر لي .
- أنا ؟
- أنت . ذات مرة قلت ، هناك قديسون يصنعون خطاة . ترى هل كانت لدي فكرة تمس بالفضيلة . ولكن عندما توجهت أنت بانظارك إلى أخي قمت أنا بما ينبغي علي . وأحب أن أعترف لك ان الرجل ، كل رجل ، حتى أنت (يا راميرو) ، حتى أنت كنت دائما أخشاك . لم أكن أرى في الرجل غير الفظاظة . الأولاد ، نعم ، ولكن الرجل ... لقد فررتُ من الرجل ...
- أنت على حق (يا توليا) .
- والآن خذ لنفسك بعض الراحة فهذا الانفعال قد يسبب لك ضرراً . وأجبرته على وضع ذراعيه تحت الغطاء ، وأصلحت ثيابه ، وطبعت قبلة على جبينه كما تقبل الطفل – وهو كان لها بمثابة الطفل – ومضت لشأنها . وعندما أصبحت وحدها قالت : « وإذا شفني من مرضه ؟ وإذا لم يميت ؟ والآن وقد كشف السر الذي كان بيننا ؟ (ومانولا) لمسكينة ؟ سيكون علي أن أذهب . وإلى أين ؟ وإذا مات (مانولا) وأصبح هو حراً ؟ وهذا ذهب لتكشف علي (مانولا) فوجدتها ساجدة .

وفي اليوم التالي صحبت الأولاد الى غرفة والدهم وكان قد تناول

القربانه ، ويكاد أن يكون في حالة احتضار ، فرفعتهم اليه الواحد تلو الآخر وجعلتهم يقبلونه . وجاءت (مانولا) وهي تنكيء على (جرتروديس) فأوشك أن يقضى عليها لفرط ما أصابها من الغم على المريض . وكان على (جرتروديس) أن تقودها الى سريرها ، وأن توسدها الفراش . وبعد قليل أسر المريض الى (جرتروديس) وقد أمسك يدها : « وداعا حبيبي (تولا) . ثم لفظ النفس الأخير . فأفرغت الحالة شجون قلبها أمام والد أولادها (راميرو) المسكين الذي أصبح جثة هامدة .

— ١٦ —

كان الحادث قليل الأثر على الجميع باستثناء سيدة البيت ، لأن الأولاد لم يكونوا بحيث يدركون ثقل ما حدث ، والأرملة (مانولا) كانت تكرر حياتها ونشاطها كالشجرة للحياة الأخرى التي تحملها في أحشائها ، ومع ذلك كانت لا تنفك تتوجع من حين لآخر كالحيوان الجريح ، وتقول انها على وشك أن تموت . وكانت (جرتروديس) تتوقع هذا .

وأغمضت هذه عيني المتوفي ، ولكن ليس قبل أن تقول مخاطبة نفسها : « ترى الا يزال ينظر الي ؟ ... » وكفنته كما كفنت خالها ، وألبسته ثوبا إضافة الى ما كان يلبسه عند موته دون أن تجرده منها ، ثم بعد ذلك ، وكانت قد انهكها التعب المتواصل طيلة أعوام ، ضمت لبعض الوقت فمها الى فم (راميرو) البارد ، واسترجعت ذكرى حياتهم التي كانت حياتها . وعندما علا بكاء الصغير ابن ربيبة الملجأ انفصلت عن الميت وذهبت لتحمل الصغير ، واسكات وتدلليل من لا يزال ينعم بالحياة .

وأثناء ذلك كانت حالة (مانولا) تزداد تدهوراً .
— أنا على وشك الموت يا سيدة . وسوف لن أستطيع التحمل
هذه المرة . هذه الولادة ستكلفني الحياة .
وهكذا كان . إذ أنها ولدت طفلة ، وراحت تنزف دماً ،
وهكذا جاءت المولودة مغطاة بالدماء . وكان علي (جرتروديس)
أن تتغلب علي ما كان منظر الدماء يحدثه لها من اشمئزاز ، وخصوصاً
التي مثل هذه ، وقد كلفها جهداً التغلب عليه . في إحدى المرات وقبل
وفاة أختها (روزا) تقيأت هذه ، ففرت (جرتروديس) مذعورة منها .
لم يكن ذلك يباعث الخوف وإنما كان الباعث الاشمئزاز .

ومات (مانولا) ، وعيناها اللتان تطوف فيهما صور ضبابية
من خيالات الملجأ مصوبتان الى عيني (جرتروديس) .

— لا تحملي هم أولادك — كانت قد قالت لها (جرتروديس)
فسوف أظل حية الى أن يشبوا عن الطوق ويصبحوا بحيث يعتمدوا علي
أنفسهم في الدنيا ، أو فسأدعهم لأخوانهم . سأولي تلك المسكينة
الأخيرة عناية خاصة ، هذه التي قد تكلفك الحياة . سأكون لها أما
وأباً .

— شكر . شكراً . شكراً . جازاك الله خيراً . انك لقديسة .
وهمت أن تقبل يدها . ولكن (جرتروديس) أكبت عليها
وقبلتها علي جبينها ، وعرضت لها خدها كي تقبلها . وكانت ربيبة
الملجأ تكرر مظاهر الشكر والامتنان كمن يلقي أمثلة كان قد تعلمها
منذ الصغر . وماتت كما عاشت كحيوان خاضع وصبور ، أو
كبعض أشياء البيت .

وهذه الميتة الطبيعية كان لها وقع عميق في نفس (جرتروديس) التي كانت قد شهدت ميتات ثلاثة . وبدا لها أنها في هذه المرة قد أدركت سر اللغز بصورة أعمق . والجرح الذي بدأ يخز قلبها لم يعمقه موت خالها ولا موت أختها ولا موت (راميرو) ، وإنما كانت هذه الميتة كأنها تؤكد الثلاثة الأخريات ، وتنبهن أيضا .

وفي هذيانها الانفرادي كانت تقول مخاطبة نفسها : « مات أولائك الثلاثة . أما هذه فقد قتلوها . ألم أقتلها أنا أكثر من أي شخص آخر ؟ ألم أعدها لهذا المأزق ؟ ولكن ، هل عاشت المسكينة ؟ وهل كان بوسعها أن تعيش ؟ وهل ولدت يا ترى ؟ أجل ، كانت معرضا . أو لم يكن موتها معرضا ؟ أو لم يكن زواجها كذلك ؟ ألم نلقها نحن في دورة الأبدية لتدخل ملجأ المجد ؟ ألا تصبح هنالك نزيلة الملجأ أيضاً ؟ » ولكن أكثر ما كان يثير الحزن في نفسها ، تلك الفكرة الملحة التي كانت تلازمها وهي كيف سيكون شعور (روزا) عندما تراها بجانبها ، بجانب (راميرو) وتتعرف عليها في العالم الآخر . الكاهن الصالح خالها أدى رسالته في هذا العالم ، قرباهما وحماهما بوجوده . وأختها (روزا) نالت بغيتها ونعمت وتركت وراءها ما كانت تتمناه من الأولاد . (وراميرو ... راميرو ؟) كذلك ، أجل (راميرو) عبر السيل ، وان يكن بصورة عابرة ، موليا ظهره إلى نجمة قطبه التي ترشده ، وتألّم ، ولكن ألمه كان نبيلاً ، وارتكب خطايا ولكنه كفر عنها . ولكن ، هذه المسكينة التي لم تتألم على الأقل ، ولم تخطيء ، وإنما أخطيء بحقها ، وماتت يتيمة ... « كذلك حواء ماتت يتيمة ... » هكذا كانت (جرتروديس) تفكر . ثم بعد ذلك

نقول : « كان الله لها بمثابة الأب . والأم ؟ لم يكن لحواء أم ... وهذا تفسير للخطيئة الأولى ... ماتت حواء يتيمة الانسانية » . وذكر حواء أعاد الى ذاكرتها ما ورد في سفر التكوين وكانت قد قرأته منذ عهد قريب وكيف ان الله نفخ الحياة في الانسان عن طريق الأنف ، وتصورت انه يتزعمها منه بنفس الطريقة . كذلك تصورت فيما بعد ، أن الله استرد الحياة الغامضة عليها من ربيبة الملجأ عن طريق قبلة اذ وضع الشفاه الخفية المتعددة التي تؤلف السماء عندما أطبقت فوق شفتيها الزرقاوين بفعل الموت ، واسترد نفحة الحياة .

والآن بقيت (جرتروديس) وحدها مع الأطفال الخمسة وهي لأن تكافح مع المرضعات من أجل الطفلة الصغيرة .

كان أكبرهم (راميرين) يمثل صورة صحيحة عن والده من حيث هيئته وتصرفاته ، وكانت خالته على أتم استعداد منذ ذلك الوقت ، منذ الصغر لمكافحة تلك الميول التي كانت عند الوالد والتي تبينت أنها كانت شديدة الضرر له : « علي أن أظل يقظة - كانت (جرتروديس) تقول - لكي عندما يستيقظ الرجل فيه ، أو على الأصح الذكر ، أرشده ليحسن الاختيار بهدوء وراحة » . وأسوأ ما في الأمر هو ان صحته لم تكن تامة الجودة ، وان نموه كان شاقا ومؤلما .

كان عليها أن تعد الجميع لمواجهة الحياة وليمضوا فيها قدما الى الأمام ، وأن تعلمهم تقديس أبائهم الذين فقدوهم .

وأبناء ربيبة الملجأ المساكين « هل هم ابنائي أيضا ؟ - كانت (جرتروديس) تقول مخاطبة نفسها - أنهم ابنائي كالأخرين ، كأبناء أختي ، وأكثر . لأن هؤلاء أبناء خطيئتي . أجل أبناء خطيئتي . كم هي مسكينة تلك الطفلة » . وكانت عليها أشد قلما .

أصبحت (جرتروديس) تشعر بانزعاج لتلميحات الطبيب (دون خوان) الذي كان يكثر من التردد لزيارة الصبيان ، وحتى انه رغب في فحصها كمریضة في حين لم يكن يعلم انها تشكو من أي مرض ، فأعلنت له ذات يوم انها ترغب في تغيير الطبيب .

- كيف هذا (يا جرتروديس) ؟

- الأمر واضح غاية الوضوح ، لأنني ارى عليك مؤشرات تجعلني أحتشى أن يكون هذيان الشيخوخة المبكرة قد أصابك ، والحالة تحتاج طبيبا صافي الذهن متيقظه .

- حسن جدا . اذن مادام ان المناسبة قد سنحت ، فأرجو أن تسمح لي أن أتكلم بوضوح .

- قل ماشئت (يا دون خوان) . ولكن مع العلم ان ماسوف تقوله سيكون الأخير في هذا البيت .

- من يدري ...

- قل .

- أنا أرمل وبدون بنين كما تعلمين (يا جرتروديس) وأعبد

الأولاد .

- اذن تزوج مرة ثانية .

- وهذا ما أنا مقدم عليه .

- وتطلب نصيحتي . ؟

- أطلب أكثر من نصيحة .

— أن أبحث لك عن خطيبه ؟

— أنا طيب . وليس فحسب اني لم أرزق ولدا من زوجتي التي كانت أرملة ، بل فقدنا الولد الذي حملته معها عند زواجنا . — ولا أزال أبكيه — وأنا أعلم ، أعلم جيداً ، وبصورة أكيدة اني سوف لن أنجب ولدا اذ ليس ذلك في مقدوري . وأنا أشعر اني أقل رجولة من سواي ، وان كان ليس بسبب ذلك . أنت تفهميني (يا جرتروديس) .

— كنت أتمنى أن لا أفهمك (يا دون خوان) .

— واتماما للحديث أظن ان هؤلاء الأطفال أبناء أختك والاثنين الآخرين قد يمكن ...

— انهما أبنا أختي مثل أولئك . الأصح أبنائي .

— حسن اذن . أبناؤك هؤلاء كما تعتبرينهم هم بحاجة لأب لا يكون فقيرا ، وانما ميسور الحال .

— وهذا كل شيء ؟

— أجل . وحتى أعتقد انهم بحاجة لأب .

— حسبهم (يا دون خوان) أبونا الذي في السموات .

— وأم أنت تمثلين الأم المقدسة . أليس ذلك كذلك ؟

— أنت قلت ذلك (يا دون خوان) وللمرة الأخيرة في هذا البيت .

— بمعنى ان ؟

— اسطورة ميلك للأولاد ، وعدم قدرتك على انجابهم ...

قد فهمتها جيدا (يا دون خوان) .

— جيدا . وهذا على ما أظن سيكون سرا بيننا نحن الاثنين .

— سوف لن أكون أنا التي ستقف في سبيل زواجك . وأقول هذه الأسطورة ، أسطورة كونك تبحث عن أولاد تتبناهم لا تقنعي ، لأن هذا سيكون من السهل عليك اذا ما تزوجت . لكنك تفتش عني ، ستفتش عني حتى ولو كنت وحدي ، وكنا سنعيش بدون أولاد . هل فهمت عليك (يا دون خوان) ؟ هل فهمت علي ؟

— هذا صحيح (يا جرتروديس) حتى ولو كنت وحدك فأنا أتزوجك اذا أنت رضيت . واضح . لأنني أنا واضح جدا ، واضح جدا . أنت التي تستجلبني . وفي هذه الحالة سيكون علينا أن نتبنى أولاداً بأي طريقة كانت ولو اخرجناهم من الملاجئ ، لأنني رأيت أنك مثلي تحبين الأولاد ، وأنت بحاجة لوجودهم ، وتبحثين عنهم وتعبدينهم .

— ولكن لا أنت ولا سواك (يا دون خوان) لم يعرف قط اني كنت غير أهل لانجابهم ، ما من أحد يستطيع أن يقول اني عاقر . لاتعد مرة ثانية الى هذا البيت .

— لماذا (يا جرتروديس) ؟

— لأنك ختير .

وهكذا افترقا الى الأبد .

لكنها بعد ان طردته هكذا شعرت بالرثاء والازدراء لذلك الرجل . وكانت تقول مخاطبة نفسها : « ألم تكن معاملتي له قاسيه ؟ صحيح ان الرجل قد أعاظني ، ولكن عينيه كانتا تجرحاني أكثر من كلماته . وكان ينبغي أن أعامله بصورة أخرى . ويبدو ان المسكين يحتاج للعلاج ولكن ليس الذي يبحث هو عنه ، وانما آخر ، علاج

بطولي جنري » . وعندما علمت ان (دون خوان) يتداوى بدأت تفكر هل كان ما ينشده هو دفء البيت . وان كان ما لبث الشك ان تطرق الى نفسها ، فثارت على قلبها وقالت : « آه ، ما يحتاجه هو هو ربة بيت ، تعني به ، وترقده في فراشه ، وتجعل ثيابه نظيفة ، وتعد له الطعام ... أسوأ ، أسوأ من العلاج ، فعندما لا تكون المرأة بمثابة العلاج فإنها تكون حيواناً أليفاً ، وفي أكثر الحالات تكون الأمرين معا . هؤلاء الرجال ... اما قاذورات أو مقاعد . ثم بعد ذلك يقولون ان المسيحية أصلحت وضعنا نحن النساء » . وعندما خطرت لها هذه الخاطرة تذكرت خالها الطيب فرسمت على صدرها رسم الصليب وقالت : « لن أعود للتفكير بمثل هذا ... » .

ولكن من يقوى على صد جماح الفكر المشبع من ثمرات معرفة الشر ؟ واخيراً المسيحية ، على رغم المجدلية ، هي دين رجال هكذا كانت تقول (جرترووديس) لنفسها - الأب ، والأبن ، والروح القدس مذكر ... » ولكن الأم ؟ دين الأم في هذا : « هنا خادمة السيد ، أفعل بي بمقتضى كلمتك » وحين طلبت من ابنها أن يموت بعض الحفلات بالخمير ، الخمر الذي يسكر ، ويفرح ، ويجعل المرء ينسى همومه ، يقول لها الابن : « ما علاقتي بك أيتها المرأة ؟ لم تأت بعد ساعتى » . ما علاقتي بك . دعاها امرأة ولم يقل أمي ... وعاد فرسم الصليب على صدره ، وهذه المرة بارتعاش حقيقي . وهل أسر لها شيطانها الحارس : « واخيراً هو رجل » - هكذا كانت تظن .

* * *

انقضت أعوام هادئة رخيية . كان اليم ينشر فوق ذلك البيت الذي لم ينقصه شيء من الرفاهية ، نورا من الهدوء النفسي . لم يكن يحتاج للتفكير الا بيوم الغد . واستمرت الحياة فيه تحت أجواء أكثر عذوبة مما تكون عليه عندما كان الثلاثة يتنفسون فتملاً جسومهم أمكتهم . الثلاثة هم (راميرو وزوجتاه) الذين تركوا (لجرتروديس) عجيبة من لحم وعظم لتكيفها . كانت هذه تتحدث دائما لأولادها عنهم : « انظران والدتك تنظر اليك » . أو انظران والدك يراك » تلك هي التحذيرات التي كانت تستعملها . وكانت رسوم الماضين ترأس المكان .

ومع ذلك كان الصغار قد بدأوا ينسونهم . لم يكن لهم وجود بالنسبة للأولاد الا في كلام (ماما) (تولا) . هكذا كان هؤلاء يدعونها . وبدأت ذكريات كبيرهم (راميرين) تفقد وتندمج في الذكريات التي كانت الحالة تقصها عنهم . كان والده بالنسبة له ، اختراعاً منها .

والذي كان يقلق بال (جرترووديس) هو الخوول دون أن تنشأ لديهم فكرة التفرقة ، اذ كان هنالك والدتان ، ولذا فهم ليسوا سوى أنصاف أخوة . لكنها لم تقو على تفادي ذلك . وخطر لها أول الأمر أن تقول لهم ان (روزا ومانولا) كانتا مثلها أما للجميع ، ولكنها تبينت استحالة دوام تلك الاكذوبة مدة طويلة . أضف الى ذلك حبيها للحقيقة ذلك الحب الشديد جعلها تستنكر تلك الفكرة على الفور .

ذلك لأن حبيها للحقيقة كان يتقمص حب الطهارة عندها . وكانت

تثير اشمئزازها تلك الأفاصيص التي كانت تتناقل والتي يراد منها خداع الصبيان البسطاء ، كأن يقال لهم انهم يأتون بهم الى هذه الدنيا

من باريس حيث يشترونهم . « يا لها من رغبة طيبة لتبديد الأموال في سبيل بليد » . هذا ما قاله أحد الصبيان الذي كان اخوانه كثر ، عندما قيل له ان أحد أصدقائه سيأتي له والداه بأخ . « يا لها من رغبة طيبة اطلاق الأكاذيب على لا شيء » كانت (جرترووديس) تقول ثم تضيف : « كل أكذوبة هي عبث على الأقل » .

— لقد قيل لي اني أنا ولد لخادمة والذي ، وان أمي خادمة أم أخوتي . هذا ما قاله ذات يوم ابن (مانولا) في البيت . فأجابته الخاله (تولا) بصوتها الهادئ الرصين أمام الجميع : — هنا كلكم أخوة لأب واحد ، وأم واحدة هي أنا .

— ولكن يا أماه ألم تقولي انه كان لنا أم أخرى ؟

— لقد كانت لكم أم ، ولكن أنا هي أمكم الآن . هذا تعلمونه .

لا تتحدثوا بعد الآن بمثل هذا .

لكنها لم تتوصل للحؤول دون أن يبدو منها بعض التمييز ، وكان ذلك (لراميرين) بكر أبويه الذي أنجبه والده حين كان لا يزال أثر الصدمة التي أحدثها اضطراره الى اختيار إحدى الاختين عالقا في فؤاده . أو على الأصح كان عليه أن يقبل ما فرضته (جرترووديس) من تعلقه (بروزا) وبالطفلة (مانولا) الوردة الصغيرة الضعيفة الشاحبة التي يخشى عليها أن تجف أو تدبل بفعل البرد والحر المبكرين .

وعن (راميرين) كبير الأولاد المطيع ذي الصوت الهادئ ، والهمس الشيطاني الشبيه بالصفير الذي طالما سمعته (جرترووديس) وكأنه يخرج من أعماق روحها . وعندما كانت تسمعه كانت ترسم رسم الصليب على جبينها كما ترسم آخر على صدرها لأنها لا تستطيع

أن تصم آذان هذا ولا ذاك . وذلك الهمس المغربي كان وكأنه يقول لها ان والده حين أنجبه كان يفكر بها هي ، (بجرتروديس) أكثر من تفكيره (بروزا) . وعن (مانوليتا) ابنة موت ربيبة الملجأ ، كان كأنه يقول لها انه لولا تصميمها على تزويج (راميرو) للمرة الثانية ، لولا أجبارها أياه على إصلاح خطيئته ، وانقاذ ضحيته المسكين (مانولا) فان تلك الوردة الشاحبه لم تكتب لها الحياة .

وما أكثر مالاقت من الصعوبات في تربيته . لأن أول أولاد (راميرو) من (مانولا) أرضعته هذه ، أمه التي كانت خاضعة كحيوان أليف ، وساعدتها غريزتها الطبيعية فلم تحاول أن ترفض على رغم ضعفها الجسدي ، وكان على (جرترووديس) أن تقف في وجه الرجل ، وجه زوجها (راميرو) لأنه حين رأى ضعف زوجته المسكينه أحب أن يحضر مرضعة لولده . ولكن (جرترووديس) التي أجبرته على أن يتزوج تلك التي أرادت لها أن تصبح الأم التي تنجب ولده وترضعه ، (جرترووديس) هذه قالت له : « ليس ما يضارع حليب الأم » . وحين رد عليها صهرها وقال : « أجل . ولكنها من الضعف بحيث يخشى عليها وعلى الولد الذي سيكون ضعيف الجسم هزيلا » . أجابته سيدة البيت قائلة : « اعذار وثرثرة . المرأة التي يمكن تغذيتها بوسعها أن تلد دائما ، والطبيعة تساعدنا ، وبالنسبة للطفل أكرر قولي ان خير حليب له هو حليب الأم اذا لم يكن مسموما » . ثم أضافت وقد خفضت صوتها : « وما أظنك قد سممت دم زوجتك » . وكان على (راميرو) أن يرضخ . وذات يوم ثار الجدل عندما اقترح الرجل أن يفصل الولد عن أمه لأنه رأى زوجته الجديدة قد أصيبت بدوار .

فأخذت به من يده وانتحت به نتاحية ، وقالت له : « ولكن ما هذا
اللاحاح يا رجل . قد يظن البعض ان الولد يضايقك ... » .

– كيف يضايقني الولد ؟ ... أنا لم أفهم .

– أنت لم تفهم ؟ أما أنا فأفهم .

– لأنك لم تفسري قولك ...

– أتريد أن أشرح ؟ هل تذكر شيئاً عن ذلك البربري

(باسكوالون) حارس حقلك في (ماخاديريا) ؟

– ماذا ؟ أذاك الذي وصفناه بعدم الأحساس عندما أبلغ بموت

ولده ... ؟

– أجل .

– وما صلة هذا بذاك ؟ اكراما لله (يا تولا) .

– بالنسبة لي لقد تغلغل فعل ذلك الى أعماق روحي ، وترك أثرا

بالغا فرغبت أن أتحرى عن جنود السبب .

– هذه هي طريقتك على اللوام ...

– أجل . لقد قال لي خالي المسكين انني مثل حواء معنية بمعرفة

الخير والشر .

– وهل تحريت ؟ ...

– ان ذاك ... الرجل ...

– أكنت على وشك أن تقولي ؟ ...

– أقول ان وجود ذاك الصبي كان يحول دون أن يتمتع الرجل

بزوجته بمتهى الحرية . أفهمت ؟

– يا لها من بربرية .

ولكن (راميرو) كان قد وافق على ما رأته (جرتروديس)
مفسحا المجال (لمانولا) لترضع ولدها .

والآن أصبح على هذه أن تربي الطفلة الصغيرة ابنة المتوفاة وقد
اضطرت أن تسلمها لمربيه لقاء أجر على أن تبحث لها عن مرضعة .
وكان هذا مرعبا لها . كان يرعبها لأنها كانت تخشى من أي مرضعة
كانت ، وعلى الأخص اذا كانت عزباء ، أن تسممها ، سواء عن
طريق الدم أو الحليب ، أو أن تتجاوز الحدود . وكانت تقول :
« اذا كانت عزباء فذلك شر . عندئذ ينبغي مراقبتها لكلا تنصرف
الى العريس أو لأي شخص آخر . واذا كانت متزوجة فذلك شر
أيضا ، بل هو أسوأ من ذلك اذا كانت قد تركت ولدها لترضع
الغريب » . وهذا ما كان يثير اشمئزازها بصورة خاصة . أن تبع
المرأة عصاره أحشائها ، عصاره الأمومة ليموت الطفل من الجوع
أو لتتقر عليه في الغذاء ، وكان هذا يثير أحشاء أمومتها . وهكذا
ظلت منذ بداية الأمر على خلاف مع مرضعات الطفلة الصغيرة المسكينة .
وكان عليها ان تستبدل المرضعة كل أربعة أيام . ألا يمكن أن ترضعها
هي ؟ وقد اضطرت أن تلجأ للتغذية الاصطناعية .

غير ان هذه الطريقة قد استحالت لديها فنا ، ثم شعرا ، وفي
النهاية طبيعة أعمق من الغريزة العمياء . كانت عبادة وتضحية ، وقربانا .
وأصبح الارضاع الاصطناعي بالنسبة (لجرتروديس) رمزا وأداة
لشعيرة دينية . كانت تغسل الزجاجات . وتغلي الحلمات كلما استعملتها ،
وتحضر الحليب ، وتعقمه بحماس وحذر كالكاهنة عند قيامها بشعيرة
دينية . وعندما كانت تضع الحلمة المطاطية في فم الطفلة المسكينة

كانت تشعر وكأن نديها يضطرب ، ويلتهب . وأحيانا كانت الطفلة تضع يدها فوق يد (جرتروديس) التي كانت تمسك بزجاجة الرضاعة .

وكانت ترقد الطفلة معها كي تزودها بحرارة جسمها ، في حين كانت تحتفظ بزجاجة الحليب بجانبها فقد يجوز أن تستيقظ الطفلة ليلا وتطلب الطعام . وكثيرا ما خيل لها أن حرارة جسمها المنبعثة على دفعات من الأمومة العذراء ، من العذرة الأمومية كانت توفر لذلك الحليب الاصطناعي خاصة من خصائص الأمومة ، وحتى ان تلك الأحلام التي طالما ازدهرت على ذلك السرير المتوحد كانت تتسرب اليه بطريقة غامضة . وعندما كانت ترضعها بمثل تلك الطريقة وفي ظلام الليل ، أو عندما يكونان وحدهما كانت تضع نديها الجاف ، والممتلئ دما في متناول يد الطفلة كي تضعها فوقه وهي تمتص عصير الحياة . وكان يخيل لها أن ذلك يوفر لها حلما عذبا وغامضا يثير النشاط في جسمها ، جسم اليتيمة . كانت تلك أحلام (جرتروديس) . وكيف ؟ هي نفسها لم تدرك ذلك ادراكا تاما .

وذات مرة تقيأت الطفلة فوق السرير الشديد النظافة ، فما لبثت ان شعرت (جرتروديس) بوخز تلك اللطحة . ولقرط ولعها بالطهارة المنبثق عنه تعظيمها القريب للنظافة ، تأثرت وكان لابد لها من بذل الجهد للسيطرة على نفسها . كانت تدرك أن لامفر من التلوث في الحياة . غير ان هذا التلوث يكون بريئا غير ان أركان نفسها كانت تتأثر به بصورة مؤلمة . ثم بعد ذلك تضم الطفلة الى صدرها طالبة بصمت أن تغتفر لها شغفها بالطهارة .

ومع ان (جرتروديس) كانت تولي تلك الطفلة المسكينة ابنة ميتة (ماثولا) عناية أمومية ، تلك العناية التي كانت تخفي في ثناياها تكفيرا عن خطيئة وتعبدا أيقنا ، فانها لم تكن تعقل عن أولئك ، مجتهدة أن لا تظهر تمييزا للذين هم من دمها ، ولكنها كانت تهتم بصورة خاصة (براميرين) ، وتتبع تأديبه خطوة خطوة ، وتراقب كل ما يبدو منه مما يذكر بوالده الذي كان شديد الشبه به « هكذا سيكون عندما يصبح في مثل سنه » هذا ما كانت تفكر به الحالة ، وحتى انها بحثت بين أوراق صهرها حيث وجدت صوراً له عندما كان صغيراً . فكانت تتأملها وتعيد التأمل لتكشف الابن فيها ، لأنها كانت تريد أن تجعل من هذا ما كانت تتصور أن تجعله من ذلك لو انها عرفته وتمكنت أن تجعله تحت حمايتها وتربيتها عندما كان صغيراً ، وتفتح أمامه سبل الحياة . وكانت تقول : « أن لا يخطي مثله ، وأن يتعلم أن يترث لينتقي ، وان لا يقيد ارادته قبل أن يرسي جذورها الحية في الحب الصحيح الشديد الوضوح الذي تنيره أنواره الخاصة » . لأنها كانت ترى ان الواجب يقضي قبل أن تغرس الفسيلة يجب أن ينظر أولاً الى السماء قبل الارض ، ليس الى الخمار الأرضي ، وانما الى الأعراق النورية التي تصلها من الشمس ، وأن تنمو الشجيرة وترسي جذورها تحت أشعة شمس الظهيرة العذبة ، وليس فوق خمار موبوء قدر وفي الحلركة . النور هو الطهارة .

كانت تدرس كل ما كان على (راميرين) أن يتعلمه ، لأنها كانت تسمع له أمثولاته يوميا . وهكذا أشبعت رغبتها في التعلم التي

لازمها منذ الصغر والتي حملت خالها على أن يشبهها بجواء . وبين سائر الأشياء التي تعلمتها مع ابن أختها ، وعلمته أباها لم يرق لها مثل الهندسة . ما كانت لتظن ذلك . وفي استنباطات علم الهندسة الجلاف البارد بالنسبة لبعضهم ، كانت (جرترووديس) تجد مالا تدرية من الاشراقات والظهاره . وبعد انقضاء أعوام وكان (راميرين) قد بلغ أشده ، وكانت جثة خالته قد أصبحت رفاتا تحت الأرض حيث لا يصلها نور الشمس ، تذكر هذا الفتى ما كانت خالته تظهره من الحماس ذات يوم من أيام الربيع النيرة وهي تشرح له كيف انه لا يوجد سوى خمس صفاح صحيحة لا غير . ثلاثه من مثلت الزاوية . المجسم من أربعة ، المثلث من ثمانية . ذو العشرين من عشرين . واحد مربع . المكعب من ستة . من الخمس واحد ذو الاثني عشر . « ولكن ألا ترى كم هو واضح ؟ » كانت تقول لي . هكذا كان ابن أختها يقول : « ألا ترى ؟ خمسة لا غير ولا تزدد . ياما أحلاه . ولا يمكن أن يكون بصورة أخرى ، يجب أن يكون كذلك » . وعندما كانت تقول هذا كانت تريني النماذج الخمسة من الكرتون الأبيض الناصع التي صنعتها بيديها القديستين البارعتين في كل عمل ويبدو وكأنها اكتشفت بنفسها قانون الصفاح الخمس الصحيحة ... مسكينة الحالة (تولا) . وذكر ان أحد النماذج الخمسة وقعت عليه نقطة دهن فصنعت آخر لأنها كانت تقول لا تظهر الاستنباطات بسبب اللطخة . كانت ترى ان الهندسة نور وطهارة .

وبالمقابل كانت تتهرب من تعليمه علم التشريح والفيزيولوجيا : وكانت تقول « هاتان أقدار » إذ ايس بوسع أحد أن يعرف عنهما شيئا بصورة واضحة ومؤكدة » .

وكانت معنية بمراقبة ظهور بوادر المراهقة لدى ابن أختها أكثر من أي شيء آخر . كانت تريد أن ترشده في بداية احساسه أو شعوره بالحب . وان يكون حبه هذا الأول والأخير والوحيد . « ولكن هل هناك حب أول ؟ » كانت تسأل نفسها دون أن تقع على جواب قاطع . وأكثر ما كانت تخشى منه على ابن أختها هي وحدته . الوحدة التي ينقصها النور تخيفها . بالنسبة لها لا وجود لوحدة مقدسة الا وحدة الشمس . ووحدة عذراء الوحدة عندما ظلت بدون ولدها شمس الروح . كانت تخاطب نفسها وتقول : « ان لا يسجن نفسه في غرفته . وأن لا يتمكن من أن يظل وحده . فهناك وحدة هي أسوأ رفيق . أن لا يقرأ كثيراً ، وعلى الأخص أن لا يكثر من القراءة . وان لا يطيل النظر في الصور » . لم تكن تخشى على ابن أختها من الأحياء بمقدار خوفها عليه من الأموات ، أو الصور . وكانت تفكر : « الموت يأتي من الميت » .

كانت (جرتروديس) تعترف أمام معرف (راميرين) ، وذلك كي تقود قائد الصبي في قيادته 'ه فتصبح هي في الحقيقة التي تقوده ، ولذا فهي في اعترافاتها كانت تتحدث عن نفسها أقل مما تتحدث عن ابنها البكر كما كانت تدعوه . وذات مرة قال لها الأب (الفاريس) : « ولكن يا سيدة أنت جئت الى هنا لتعترفي بخطاياك وليس بخطايا الآخرين ؟ » فأجابته هي : « هذا الصبي هو خطيئي ... »

وحين أحست بميل من الصبي للزهد وقد يكون للتصوف هرعت الى الأب (الفاريس) وقد تملكها الذعر فقالت له : - هذا لا يمكن أن يكون يا حضرة الأب .

- واذا كان الله يدعو الى هذا السبيل ...
- كلا . إنه لا يدعو الى هذا . أنا أعلم . أنا أعلم أكثر منك .
- وحتى منه هو . هذه هي الحسية ... التي تستيقظ عنده .
- ولكن يا سيده ...
- أجل انه يبدو حزينا ، والحزن ليس موهبة دينية . ولا يمكن أن يكون ندما . من أي شيء ؟ ...
- انها حكمة الله يا سيده ...
- حكمة الله واضحة . وهذا غامض . انزع من رأسه هذا .
- لقد ولد هو ليكون أباً ، وأنا لكي أكون جدة .
- هل بدا ذلك ؟
- أجل . لقد بدا .
- ما أشد ما تتزعجين من هذا . تحرري من هذا الازعاج . . .
- انقد قال لي مئة مرة انه قضى على ذلك التفكير السيء .
- لا أستطيع يا أبت ، لا أستطيع .. أريد أن لا يعلم بذلك أولادي . — انهم أولادي الحقيقيون ، أن لا يعلمه أولئك ، أن لا يعلموه يا أبت وان لا يتكهنوا به ...
- خففي عنك ياسيدة إكراما لله ، خففي عنك ... وابعدي عنك هذه التعليمات ... انها اغراءات شيطانية . لقد قلت ذلك مئة مرة ...
- كيفما كانت ... الحالة (تولا) التي نعرفها ، نقدرها ونعجب بها ...
- أجل نعجب بها ...
- كلا يا أبت ، كلا . أنت تعلم . ضمنا أنا أخرى ...
- ولكن ينبغي ستره ...

- أجل . ينبغي اخفاؤه . أجل ينبغي ستره . ولكن كثيرا ما
يخطر لي أن أجمع أولاده ، أولادي ...
- أجل أولادك أنت .
- أجل أنا أم . كما أنت أب ...
- دعك من هذا يا سيدة . دعك من هذا ...
- أجل . أن أجمعهم ، وأقول لهم أن كل حياتي كانت كذبا ،
وغلطا ، وفشلا .
- أنت تتهمين نفسك يا سيدة . هذد ليست أنت . أنت الاخرى ...
التي نعرفها جميعنا ... الحالة (تولا) ...
- أنا جعلت منه تيعسا يا أبت . لقد جعلته يهوى مرتين ، الأولى
مع أختي ، والثانية مع أخرى ...
- يهوى ...
- أجل يهوى . وذلك بعامل الزهو .
- كلا . لقد كان بدافع الحب . الحب الحقيقي .
- بدافع حب الذات يا أبت . قالت ذلك وطفقت تبكي .

– ٢٠ –

لقد نجحت في انقاذ ابن اختها من ذبذبات التصوف ، وانصرفت
لمراقبته ، والبحث عن ظهور بوادر الحب الأول عنده . وكانت تقول
له :

– تبصر جيداً يا بني ، ولا تتسرع لأنك متى عرضت واحدة للخطر
فينبغي أن لا تهجرها ...

- ولكن (ماما) اذا لم يكن هنالك تعريض للخطر ... في البداية
يجب الاختبار ...

- لا مجال للاختبار ، ولا لطول مدة الخطوبة . ولا لمثل هذا :
« أنا أتحدث مع فلانه » . دائما برصانه .
والواقع هو ان الحالة (تولا) كانت من ناحيتها قد اختارت
وجربت أن تحمل (راميرين) بلطف على الارتباط بتلك التي اختارتها
له .

- يبدو انك تنظر الى (كاريتا) - قالت له ذات يوم .
- بش .

- وهي تنظر اليك اذا لم أكن واهمه .

- وأنت تنظرين نحو الاثنيين على ما يبدو ...

- أنا ؟ تلك قضية خاصة بك يا بني . خاصة بك ...

ولكنها مضت توجه الواحد نحو الأخرى . وتوصلت الى ما
تبتغيه . ثم أرادت أن تحملهما على الزواج بأقرب وقت . وكانت تقول :
« لتأتي الى هنا فنعيش جميعنا معا فهنالك متسع للجميع ... ابنة بزيادة » .
وحيثما جاءت (بكاريتا) الى منزلها كزوجة لابن اختها أصبحت
هذه نجيتها ومنها أصبحت تحاول الحصول على دخيلة ابن أختها .
وأجبرتها منذ البداية على أن تحاطبها بصيغة المفرد وأن تدعوها
(أمي) . وأوصتها بصورة خاصة أن تعتني بالصغيرة ، بالهادثة ،
الساكته ، الهلعة (مانوليتا) . وكانت تقول لها :
- اسمعي (يا كاريداد) . اعتني بصورة خاصة بهذه المسكينة
البريئة ، والمعرضة للتحطم ، والطيبة كالحبز ... أنها من صنعي ...

- ولكن ما دامت قليلا ما ترفع صوتها ... وما دامت لا تمشي في البيت ... يبدو أنها تستحي من الظهور .
- أجل ، أجل هي كذلك . حاولت كثيرا أن أبعث المرأة في نفسها ، غير أنها إذا لم تكن لاصقة بجنبي فأنها تكون ضائعة . طبعا لأنها ربيت على الرضاعة .
- القضية هي أنها مجدة ، ومطبعة ، وخدمومة لكنها قليلة الكلام ... ثم أننا لم نسمعها تضحك مرة واحدة أبدا ...
- الا أنها بعض الأحيان عندما أكون أنا وهي وحدنا ، يتغير وضعها وتصبح (مانوليتا) أخرى ... عندئذ تنتعش ، فأحاول تشجيعها ، ومواساتها فتقول لي : « لا تتعبي نفسك يا أماه ، فأنا هكذا ... وفضلا عن ذلك فلست حزينة ... » .
- ولكنها تبدو كذلك ...
- أجل ، تبدو كذلك ، ولكني توصلت أن أعتقد أنها ليست كذلك ، أنا ، أنا نفسي كيف أبدو لك ، (يا كارتيا) حزينة أم مسرورة؟
- أنت يا خالة ...
- ما هذه الطريقة في الكلام أنتم بصيغة الجمع ، وخالة ؟
- حسن ، أنت ... يا أماه ، أنت ... لا أدري على أي حالة أنت .
- حزينة أم مسرورة . ولكني أظن أنك مسرورة ...
- هل أبدو لك كذلك ؟ اذن يكفي .
- على الأقل أنت تبعين السرور في نفسي ...
- ولأجل هذا بعث الله بنا الى الدنيا ، لادخال السرور الى قلوب الآخرين .

- ولكي ندخل السرور الى قلوب الغير ينبغي أن نكون مسرورين ..

- أو . لا ...

- وكيف لا ؟

- لا شيء يبعث السرور مثل شعاع الشمس ، وعلى الأخص اذا

وقع على خضرة أغصان شجرة ، وشعاع الشمس ليس مسروراً

ولا حزيناً . ومن يدري ... فقد تستهلكه حرارتها ... شعاع الشمس

يسر لأنه نظيف . وكل ما هو نظيف يسر ... وهذه المسكينة (مانوليتا)

يجب أن تسر لأنها نظيفة ...

- أجل . هذا صحيح ، وخصوصاً عيناها اللتان تشبهان ...

- تشبهان حوض ماء هادئين بين الخضرة ... كثيراً ما تأملتهما

وعن قرب . ولست أدري من أين جاءت بهما ... انهما لا تشبهان

عيني أمها اللتين كانتا كعيني مسلوطة . عكرتين بفعل الحرارة ...

ولستا كعيني أبيها اللتين كانتا ...

- أتدرين ما تشبهان تانك العينان ؟

- من ؟ - قالت (جرترووديس) تسأل وهي ترتعش عندما

سألت .

- انهما تشبهان عينيك ...

- قد يمكن ... قد يمكن ... اني لم أتأملها أبداً عن قرب .

ولست أقوى على تيين أعماقهما . ولكن قد يمكن ... قد يمكن ... على

الأقل لقد علمتها أن تنظر ...

* * *

ما الذي أصاب (جرتروديس) المسكينة أنها تذوب داخلها ؟
مما لاشك فيه أنها أدت رسالتها في هذه الدنيا . لقد تركت ابن اختها
الكبير (راميرو ، راميروها) الآخر في منجى من أسوأ العواصف ،
وقد استقل زورقه في الحياة ، وتركت الآخرين تحت رعايته . لقد
غادرت البيت مشتعلا وتركت فيه من يسهر على ناره . لقد باتت تشعر
باضمحلال ، وباغماء ، وخلال أيام كاملة كانت ترى كل شيء
ملفعا بالضباب ، أو طفاوة ، أو دخان . وأصبحت تراودها الأحلام
كما لم تعرف ذلك من قبل قط . كانت تحلم بما كان سيكون من أمر
(راميرو) لو انه ترك (روزا) لأجلها ، ثم تنتهي الى القول بأن
الأمر ما كانت لتكون الا كما كانت . ولكنها هي عبرت الدنيا
خارج الدنيا . غير ان الأب (الفاريس) كان يرى ان المسكينة
(جرتروديس) أصبحت تهذي مبكرة . وان ذكاءها العتيد أخذ
يضعف ، وانه يضعف بمقدار صلابته ، وان من الواجب حمايتها
من الاغراءات القديمة .

وعندما تقدمت منها (كاريداد) ذات يوم ، وأسرت لها في
أذنها « أماه » هتفت قائلة عندما رأت احمرار وجهها : « ماذا ؟
هل تم ؟ » أجل تم » فقالت : « هل أنت متأكدة ؟ متأكدة ولولا
ذلك لما كنت اخبرتك » . فأحست (جرتروديس) كأن سيفا من
الثلج قد اخترق قلبها لفرط ما ساورها من السرور . لم يعد لها ما تفعله
في هذه الدنيا بعد الآن الا انتظار الحفيد ، حفيد أقربائها ، حفيد
(راميرو) (وروزا) . حفيدها هي . ثم الذهاب لنقل نبا الحادث
السعيد اليهما . لقد خصصت عنايتها (لكاريداد) التي أصبحت ، بالنسبة
لها تملأ البيت ، وحتى أنها باتت تهمل المسكينة (مانوليتا) ضيعتها

التي بدأت تتألم لذلك . لقد شعرت ان الحظ قد ألقى بها في الظلام .
- تعالي الى هنا . - قالت (جرتروديس) (لكاريداد) حين
انفردت بها ذات مرة ، وهي مناسبة طالما انتظرتها - تعالي الى هنا ،
واجلسي بجانبني ... هل تشعرين به يا بنيتي ؟ هل تشعرين به ؟

- بعض الأحيان ...

- الا يصيح ؟ ألا يستعجل خروجه الى النور ؟ الى نور الشمس ؟
لأنه هنا في ظلام ... وان كان في دفء واطمئنان ... ألا يدفع ؟ اذا
تأخر فسوف لن يراني ... سوف لن أراه ... يعني اذا تأخر . كلا .
اذا عجلت أنا ...

- يا أماه لا تقولي مثل هذا الكلام ...

- أن لا أقول يا بنيتي . ولكني أحس ووكأنني أذوب ... لم أعد
أصلح لشيء ... أرى كل الأشياء ملفعة ... كما في الحلم ... لا أستطيع
الآن أن أقول ان لون شعرك أسود ، أو أشقر لو لم أكن أعرف ذلك من
قبل .

وراحت تداعب شعرها الأشقر وهي تردد : « أشقر » « أشقر »
كالشمس ، كما لو كانت تبصر بأناملها ...

- اذا كان ذكرا فأنت تعلمين ان اسمه (راميرو) ، واذا كانت

أنثى (فروزا) ...

- كلا يا أماه . وانما اسمها (جرتروديس) ... (تولا) الأم

(تولا) .

- (تولا) ... حسن ... والأحسن اذا كان توأما ، طفل وطفلة ...

- يا الله . أماه .

— وماذا ؟ أتظنين أنك لا تقوين على تحمل ذلك ؟ أتحسبينه عملاً

شاقاً ؟

— كلا . لا أدري ... لا أعلم شيئاً عن هذا يا أماءه . ولكن ...

— أجل هذا هو العمل التام . توأم . ذكر وأُنثى . كانا متعاقبين

عندما لم يكونا يعلمان شيئاً عن الدنيا . عندما لم يكونا يدركان أنهما موجودان . كانا متعاقبين في كنف دفء أحشاء الأمومة ... مثل هذا يجب أن يكون أيتها السماء ...

— يا لها من أشياء تخطر على بالك (يا ماما تولاب) .

— ألا ترين انني قضيت الحياة حاملة ...

وبينما هي تحلم بمثل هذا ، وكأنها ترغب في أن تحمل في صدرها هذا الحلم كزاد سفر لتودعه بطن الأم الأرض ، أصيبت المسكينة (مانولا) بمرض شديد فقالت (جرتروديس) آه . « أنا الملومة . أنا التي أهملتها ، أنا أهملت هذه الطفلة المسكينة ، هذا الهزار بسبب توأم الحلم ... فما لا شك فيه هو أنها عندما افتقدت قربي منها سرقها البرد ... » وأحست وكأنها استردت قواها بأعجوبة ، واستنار ذهنها وانصرفت للعناية بالمريضة .

— ولكن يا أماءه ، دعيني أعني بها — قالت لها (كاريداد) — نحن

نعني بها جميعنا ... أنا ، (وروزيتا ، والفيرا) نعني بها .

— كلا ليس بوسعك انت أن تعني بها كما ينبغي . ليس بوسعك

أن تعني بها . أنت مدينة لما تحمليه . لما تحملين ، ولا يجوز أن تضري الآخر بسبب عنايتك بهذه ... وبالنسبة (لروزا) (والفيرا) فهي أختهما وتجانها كالأخت ولكنهما لا تجيدان هذه الأمور . وفوق ذلك ،

ومع أن المسكينه تستكين لكل شيء ، الا أنها لا تطمئن بدون وجودي ...
انها تجد لذة بكوب ماء أقدمه لها أكثر من كل ماتقدمونه في سبيلها .
أنا وحدي أعرف كيف أسوي لها المخدة بحيث لا تسبب لها وجع
الرأس ، ولا تصاب بكابوس ...
— أجل هذا صحيح ...

— واضح . فأنا ربيتها ... وعلى عاتقي يقع عبء العناية بها .
لقد انتعشت . وعاد لها ما كانت تتمتع به في أيامها البطولية من لباقة
وعناية فائقتين . لم تعد تشعر برعشه اليد ، ولا بضعف الساقين . وعندما
كانت تمسك الكأس ، وجرعة الدواء التي كانت تعطياها اياها بعض
الأحيان ، كانت المريضة المسكينه تضع كلتي يديها الخارتين في يديها
الثابتتين الناعمين فترق حولهما اشراقات ذكريات عذبة ربما كانت
قد امحت من ذاكرة طريجة الفراش . ثم تجلس الخالة (تولا) بجانب
السريير ، وتظل هناك بينما تكون تلك لا تأتي شيئا سوى النظر اليها
وهي صامته .

— هل سأموت يا (ماما) ؟ -- قالت الطفلة تسألها .
— ستموتين ؟ كلا . يا عصفورتي المسكينه . كلا . يجب أن
تعيشي ...

— مادمت حية ...
— وبعدي ... وبعدي ...
— بعدك ... كلا ... ولماذا ؟
— ولكن الفتيات يجب أن يعشن ...
— ولماذا ؟ ...

- لكي يعشن ... لكي يتزوجن ... ولكي يصنعن عائلات ...
- ولكن أنت لم تتزوجي (ماميتا) ...
- كلا . أنا لم أتزوج . ولكني كما لو كنت قد تزوجت ...
- ويجب عليك أن تعيشي لتعني بأخيك ...
- هذا صحيح ... بأخي ... بأخي ...
- أجل . بالجميع ...
- ولكن يقولون يا أماه انني لا أصلح لشيء .
- من يقول هذا القول يا بنيتي ؟
- كلا . أنهم لا يقولون . لا يقولون ... ولكن هكذا يفكرون ...
- وكيف علمت أنهم بهذا يفكرون ؟
- ذلك لانني أعلمه ... وفضلا عن ذلك لأنه حقيقة ... لأنني لا أصلح لشيء أبدا . وبعد موتك فليس لي ما أعمله هنا ... اذا أنت داهمك الموت فسأموت أنا من البرد ...
- هيا . هيا . التحفي بلحافك جيدا ولا تعودى للتحدث بمثل هذا الكلام . وأنا ذاهبة لأعد لك العلاج
- وذهبت عنها كي تحفي دموعها ، ولتلقي بنفسها عند قدمي تمثال
عذراء الوحدة ، ولتضرع اليها : « حياتي فداء لحياتها أيتها الأم .
حياتي فداء لحياتها . انها تشعر بأني ذاهبة ، وان أمواتي يدعونني ،
وهي تريد أن تذهب معي . ترغب في أن تلتصق بي ملتحفة بالأرض ،
هنالك في الأعماق ، حيث لا يبلغ نور الشمس ، فأولياها أنا دفاً
لا أدري ما هو ... حياتي فداء لحياتها يا أماه . حياتي فداء لحياتها .
أن لا تعجل في السقوط تلك الستارة من التراب والظلمات فوق تينك

العينين اللتين لا يخبو نورهما ، فوق تينك العينين اللتين يقولون أنهما
عيني ، فوق تينك العينين اللتين لم أترك لهما نطخة ... أجل أنا ... أن
لا تموت ... أن لا تموت ... انقذها يا أماء . وان كان علي أن أذهب
دون أن أرى القادم ... » .
وتقبل الله دعاءها .

وعادت الحياة تدريجيا نثلك الطفلة المسكينة . واستردت توردها
حديدها . وعادت لترى النور عندما يسقط على أغصان الأشجار الخضراء
في حديقة البيت الصغيرة . ولكن الحالة أصيبت بالتهاب رئوي خلال
أيام نقاهة (مانوليتا) . وعندئذ أحست هذه وكأن دفقة من العافية
قد انصبت في أحشائها لأن عليها أن تعني بتلك التي وهبتها الحياة .
وقد تولت الدهشة جميع سكان البيت لما ظهر من مظاهر التجلي
على تلك الطفلة .

قالت (جرتروديس) مخاطب (كاريداد) : - أبلغني (مانوليتا)
أن لا تجهد نفسها بهذا المقدار لأنها مازالت ضعيفة ... وأنت أيضا
على افتراض . فأنت مدينة لذويك كما تعلمين ... ويكفييني
(روزيتا والفيرا) ... هذا مع العلم ان كل شيء غير ذي جدوى ...
ذلك لأنني قد أكملت ...
- ولكن يا أماء .

- لا شيء . وكما قلت أن لا تسرف حماسة الله في تبديد حيويتها ...
- ولكنها استعادت قوتها ... ما كنت لأعتقد ذلك ...
- وهي التي كانت تريد أن تموت ، وتعتمد أنها ستموت ...

وقد خشيت عليها لأني رأيتها ضعيفة ... طبعاً هي لم تعرف أباهما الذي كان على فراش الموت عند ولادتها ... وبالنسبة لأمها المسكينة أنا أعتقد أنها عاشت ميتة ... ولكن هذه الطفلة قد بعثت ...

– أجل ، بُعثت عندما رأتك في خطر .

– صحيح . هي ابنتي .

– أكثر ؟

– أجل . أكثر . أريد أن أصرح لك وأنا على عتبة الأبوية ،

أجل أكثر . هي وأنت .

– هي وأنا ؟

– أجل هي وأنت . لانكما لستما من دمي . هي وأنت . هي

من دم (راميرو) وليس من دمي ، ولكن أنا التي صنعتها . أنها من صنيعي . وأنت زوجتك من ابني .

– أعرف ذلك ...

– أجل . كما زوجت والده من والدته أختي . ثم عدت فزوجته

من والدة (مانوليتا) ...

– أعرف ذلك ... أعرف ذلك ...

– أنا أعرف انك تعرفين ، ولكن ليس الكل ...

– كلا . ليس الكل ...

– ولا أنا أيضاً ... أو على الأقل لا أريد أن أعرفه . أريد أن

اغادر هذه الحياة دون أن أعرف أشياء كثيرة ... لأن هناك أشياء

معرفة تلتصق بها الخطيئة الأولى ... والآن العذراء المقدسة

ولدت ولم تلتصق بها الخطيئة الأولى ...

- ولكنني سمعت ان بعضهم يقول انها كانت تعرف كل شيء...
 — كلا . لم تكن تعرف كل شيء . لم تكن تعرف علم الشر ...
 فهو علم ...
 — حسن ، لا تكثري من الكلام يا أماء فقد يضررك ...
 — أكثر ما يؤذيني هو التفكير . واذا لم أتكلم أفكر ... أفكر ...

— ٢٢ —

لم يعد جسم الحالة (تولا) قادرا على المقاومة طويلا . كانت روحها ترف داخله كعصفور في قفص يكاد يهتري ، ويفارقه بألم من يعذب ، الا أنه يتوق للتخليق فوق طبقات الغيوم . سوف لن ترى الحفيد . أيولها ذلك ؟ كانت تحلم بأنها « سوف تعلم هناك حين تصبح معهم ، ما هو . هل هو طفل أم طفلة ... أو الاثنان معا ... ستعلم هناك أكثر من هنا ، اذ من الأعالي تكون الرؤية أفضل ، وأظهر منها هنا على الأرض » .

الحمى الأخيرة التي أصابتها اضطرتها إلى ملازمة الفراش ، وتعذر عليها تمييز أبناء أختها الا عن طريق الخطو ، وعلى الأخص (كاريداد) و(مانوليتا) . كان خطو (كاريداد) يبدو لها كخطو طفلة مثقلة بالثمار ، وحتى انه كان يبدو لها انها تشتم ريح النضوج . أما خطو (مانوليتا) فكانت تحس انه خفيف كخطو عصفور لا يعرف اذا كان يمشي أم يطير على الأرض . وكانت تقول مخاطبة نفسها : « عندما تدخل هي أحسن بحفيف أجنحة تغلق وتهدأ » .

حاولت أن تودع هذه أولا ، وعلى انفراد فاهتبلت فرصة قدومها اليها حاملة العلاج ، فأخرجت ذراعها خارج السرير وأبدت حركة

- كمن تباركها ، ووضعت يدها على رأسها فطأطأته هذه فضلة العينين بالدموع وقالت لها : — يا لك من حيامة لا تحمل ضغينة . هل مازلت ترغيبين في أن تموتي ؟ الحقيقة . . .
- اذا كنت أتوصل . . .
- أن لا أموت . هيه ؟ كلا . لا ينبغي أن ترغبي بالموت ... لديك أخوك ، أخوتك ... لقد كنت بقربهم . ولكن يبدو لي ان التجربة قد شفقتك من هذه الأشياء . أليس كذلك ؟ قولي لي كمن تعترف لأنني أرغب في نقل اعترافك النوبنا ...
- أجل لم تعد تراودني تلك الصبيانيات .
- صبيانيات ؟ كلا . لم تكن صبيانيات . آه . والآن وقد ذكرت الصبيانيات ، أحضري لي لعبتك فأنت تحتفظين بها . أليس كذلك ؟ أجل أنا أعلم انك تحتفظين بها ... أحضري لي اللعبة . أتعلمين ؟ أريد أن أودعها أيضا . وان تودعني هي ... أما زلت تذكرين ؟
- أجل يا أماه ، لا أزال أذكر .
- ماذا تذكرين ؟
- عندما سقطت مني في الهوة وطففت أبكي فوصفتني (الفيرا) بالغبية ، وقالت لي : لا يفيد البكاء في شيء ...
- هذا ... هذا ... وماذا غير ذلك ؟ هل تذكرين شيئا آخر ؟
- أجل . لا أزال أذكر القصة التي قصصتها يومئذ ...
- هات . لئلا . أي قصة ؟
- قصة الطفلة التي سقطت لعبتها في بئر جاف حيث يتعذر عليها الهبوط لاجراجها ، فأبكت تبكي ، وتبكي . بكت كثيرا الى أن امتلأ البئر بدموعها فطففت اللعبة وخرجت من البئر ...

- وبماذا عاقمت (الفيرا) على ذلك . وماذا قالت ؟ فأنا لا أذكر .
- أجل . أجل أنت تذكرين يا أماء ...
- حسن . وماذا قالت ؟
- لقد قالت ستصبح الطفلة جافة وتموت لكثرة بكائها ...
- وماذا قلت أنا ؟
- أكراما لله يا أماء ...
- حسن . لا تقوليه . ولكن لا تبك هكذا يا حمامتي . لا تبك هكذا ... اذ مهما بكيت فسوف لن تمليء بدموعك البئر الذي سأسقط فيه وان أطفو ...
- قد يمكن أن يكون ...
- آه . اذن . اذا أمكن أن يكون فسأخرج للقبض عليك وحملك معي ... ولكن يجب التريث الى أن تحين الساعة . اعطني بأخوتك . أنا أدعهم على عهدتك . هن تدرين ؟ على عهدتك . اعلمي على أن لا يعنوا اني مت .
- سأفعل كل ما بوسعي ...
- أن لا يعلموا اني قدمت ... وسأعينك من الأعلى .
- سأصلي لأجلك يا أماء .
- الى العذراء يا بنيتي . الى العذراء ...
- سأصلي لأجلك كل ليلة قبل أن أتوسد فراشي .
- حسن . لا تبكي هكذا ...
- ولكني لا أبكي . ألا ترين اني لا أبكي ؟
- كي اتغسلي عينيك لا بأس بالبكاء عندما ترين اشياء قبيحة . ولكنك لم تشاهدي أشياء قبيحة . ولا يمكن أن تشاهدها ...

- واذا حدث ذلك ، فسأغمض عيني ...
- كلا . كلا . هكذا تبدو الأشياء بصورة أكثر قبحا . صلي لأجل أبيك ، وأملك . ولأجلي ... لاتنسي أملك ...
- سوف لن أنساها ...
- لأنك لم تعرفيها ...
- أجل . أنا أعرفها .
- أقصد الأخرى تلك التي جاءت بك الى الدنيا .
- أجل . أنا أعرفها . والفضل لك . أعرف الأخرى .
- مسكينة . انها لم تعرف التي لها ...
- أنت كنت أمها . أعرف ذلك جيدا .
- حسن . ولكن لا تبكي ...
- لست أبكي . – قالت ذلك ومسحت عينيها بمؤخر كفها الأيسر . بينما كانت تمسك بيمينها المرتعشة قارورة العلاج .
- حسن . والآن آتني باللعبة لأنني أرغب في أن أراها . آه .
- هناك في إحدى زوايا تلك القنطرة ، قنطرتي تلك التي تعرفينها ...
- هناك يوجد المفتاح ... أجل هذه . هي هنالك حيث لم يمسه أحد الا أنا ، وبعض الأحيان أنت . هنالك بجانب تلك الرسوم . أتدرين ؟
- توجد لعبة أخرى ... لعبتي ... تلك التي كانت لي عندما كنت طفلة ...
- حزاني الأول ... الأول ؟ ... حسن آتني بها أيضا ... ولكن على أن لا يعلم أحد من هؤلاء لئلا يقولوا انها صبيانيات ، لأننا نحن الصبيانيات
- آتني باللعبتين لاودعهما ، ثم بعد ذلك نعود الى وقارنا ، وننتهي لوداع الآخرين ... اذهبي فقد خطرت لي فكرة سيئة – قالت ذلك ثم رسمت رسم الصليب على صدرها .

كانت الصكرة السيئة هي وسوسة شيطانية قامت في أحشائها
المتألمة وأوحت لها : « الجميع نعبات » .

— ٢٣ —

ثم ودعت الجميع وأيضا (كاريداد) .
— هكذا يا أبنائي . الحمى الأخيرة ، بداية نار المطهر ...
— ولكن ما هذا الكلام الذي تتكلمينه يا أماه ؟
— أجل نار المطهر ، لا وجود للنار في الجحيم ... الجحيم من الثلج ،
وليس الا من الثلج . انها تكوي لحمي ... وشد ما يؤلمني هو ذهابي
دون أن أرى القادم ، أو القادمة ، أو القادمين الينا ...
وليس الا من الثلج . انها تكوي لحمي ... وشد ما يؤلمني هو ذهابي
دون أن أرى القادم ، أو القادمة ، أو القادمين الينا ...
— هيا دعينا يا أماه ...

— حسن . اسكتي (يا كاري) ولا تأتينا الآن بما يحجل ... لأنني
أريد أن أقص كل شيء على أولئك الذين يدعونني اليهم ... هيا لاتبكي
هكذا ... انهم هناك ... الثلاثة ...

— واكن لا تتكلمي مثل هذا الكلام .

— الآن تريدني أن آتي بما يضحك ؟ الصبيانيات جئت بها أنا
(ماتويليتا) . غبيتا البيت الاثنتان . وعليّ الآن أن آتي ما يذكرني
الكتب ...

— حسن — لا تكثري من الكلام . هكذا أمر الطبيب أن لا تكثري
من الكلام .

— أنت هنا (يا راميرو) ؟ الرجل . أتقوين الطبيب ؟ وماذا

يعرف الطبيب ؟ لا تقيمي الكلامه وزنا . . . وفوق ذلك انه لمن الأفضل أن يعيش المرء ساعة واحدة وهو يتكلم من أن يعيش يومين وهو صامت . الآن هو وقت الكلام . فضلاً عن ذلك فأنا أتسلى وأنسى أشيائي .

— أنت تعلمين ان الأب (الفاريس) قد قال : فكري الآن بأشيائك ...

— آه . أنت هنا (يا الفيرا) العاقلة ؟ وماذا عن الأب (الفاريس) . ايه ؟ ... رجل العلاج ... وماذا يعرف الأب (الفاريس) ؟ طبيب آخر ، ورجل آخر ، وفضلاً عن ذلك فليس لدي أشياء خاصة للتفكير فيها ... لا أشياء لدي ... أشيائي هي أشيأؤكم وأشيأؤهم ... أشياء الذين يدعونني ... أنا لست من الاحياء ولا من الأموات ... ما كنت قط حية ولا ميتة ... ماذا ؟ ما تقول هناك (يا انريكي) ؟ اني أهذي ...

— كلا . أنا لم أقل هذا ...

— أجل لقد قلت هذا . لقد سمعتك جيداً . همست به في أذن (روزيتا) ... ألا ترى انني أسمع حفيف الهواء بين اجنحة (مانوليتا) الهادئة . اذن هو هذيان ... ماذا ؟

— ينبغي أن تستسلمي للراحة .

— ارتاح ... ارتاح ... لدي وقت للراحة .

— ارتاح ... ارتاح ... لدي وقت للراحة .

— ولكن لا تكشفني الغطاء هكذا ...

— ولكنني أعانق ذاتي ... أنت تعلمين (يا كاريداد) . (تولا) ،

(تولا) باسمي ... وهو (راميرو) ... اذا كان اثنين هو وهي ،
يحتضانان في كنف الدف ...

وسادت فترة صمت . وعندما سمعت المحترضة صوت بكاء
متقطع ومكبوت أضافت :

– ينبغي أن تشجعوا . فكروا جيدا . جيدا بما أنتم مقدمون على
عمله . فكروا جيدا ... فسوف لن تندموا اذا فعلتم ، وستكونون
أقل ندما اذا لم تفعلوا ... واذا رأيتم من تحبون قد سقط في مستنقع
موحل ، ولو كان في بئر أسود ، أو مجرور فبادروا لانقاذه حتى ولو
تعرضتم لخطر الاختناق ... كيلا يخنق هو هناك ... اختنقوا معه ...
في المجرور . كونوا له بمثابة العلاج . أجل بمثابة العلاج ... ان تموتوا
في الأقدار والأوحال ؟ لا يهم ... ليس بالوسع انقاذ الرفيق طيرانا
فوق المجرور إذ لا أجنحة لنا . لا أجنحة لنا ... أو هي أجنحة
دجاجة ليست للطيران ... وحتى ان الأجنحة قد تتسخ من رشاش
الأوحال التي تتطاير عن الفريق ... كلا . ليس لنا أجنحة ، وعلى
الأقل أجنحة دجاجة ... ولسنا ملائكة ... سنكونها في الحياة الأخرى ...
حيث لا أوحال ولا دماء . في المطهر توجد أوحال حارة تحرق وتطهر ...
أوحال تطهر . أجل . في المطهر يحرق الذين أبوا أن يغتسلوا في الأوحال ..
أجل في الأوحال ... يحرقون في الزبل الحار ... ويغسلون بالأقدار ...
هذا آخر ما قد أقوله لكم . لا تخشوا الأقدار ... صلوا لأجلي كي
تغفر العذراء لي .

وأصاها أغماء . وبعد أن أفاقت منه لم تعد تقوى على تنسيق
أفكارها . ودخلت في حالة احتضار عذبة . وانطفأت كما تنطفئ

أمسيه من أمسيات الخريف عند آخر أشعة الشمس المتسربة عبر الغيوم
المصطبغة بلون الدماء ، تنحل في ماء الجدول المتفرع عن النهر الهادي
الذي تبدو فيه أشجار الحور ذات الأغصان التي استحالت حمراء
بلون الدم أيضا ، والتي تحرس زفافه .

— ٢٤ —

هل ماتت الخالة (تولا) ؟ كلا . لكنها بدأت تحيا في العائلة ،
وتشع حياة جديدة أشد اشراقا في العائلة الخالدة . أصبحت الآن
بالنسبة لأولادها وأبناء أختها الخالة . لا أكثر من الخالة . لا الأم ،
ولا (ماما) حتى ولا الخالة (تولا) ، وإنما الخالة فحسب . كان هذا
بمثابة تضرع ، تضرع ديني حقيقي ، وكتفديس المقدسات البيتية .
حتى (مانوليتا) ابنتها ، ووارثة روحها ، ومجمع شعاراتها لم تعد
تدعوها الا الخالة .

كانت تحافظ على وحدة العائلة وتماسكها . واذا كان عند موتها
قد ظهرت للعيان انقسامات داخلية كانت من قبل مكتومة ، واتحادات
دفاعية وهجومية بين الاخوان ، فان تلك الانقسامات قد نتجت عن
الحياة العائلية التي أوجدتها هي . روحها أثارت ذلك التنافر ، وفوقه
وتحتة أقامت الوحدة الأساسية والنهائية للعائلة — كانت الخالة (تولا)
دعامة ذلك البيت و سقفه .

وقد تشكل في هذا البيت مجموعتان . كانت (روزينا) ابنة
(روزا) الكبرى في احداها ، متحدة مع (كارينداد) زوجة أخيها ،
وليس مع شقيقها ، ليس مع (راميرو) . وفي الثانية (الفيرا) ابنة
(روزا) الثانية متحدة مع (انريكي) أخيها غير الشقيق وابن ربيبة

الملجأ . وظل خارج المجموعتين (راميرو) (ومانوليتا) . كان
(راميرو) يعيش ، وبأصح تعبير كان يدع نفسه يعيش مكرساً نفسه
للعناية بولده ، وللمستقبل الذي يمكن أن يعده له الآخرون ، ولعلاقاته
المدنية ، وكانت (مانوليتا) تهتم كثيراً للبقاء على تقديس (تولا) ،
وتقاليد البيت .

وكانت (مانوليتا) تطمح لأن تصبح صلة الوصل الممكنة بين
أربع عائلات مقبلة ممكنة . لقد تطورت بعد موت الخالة ، وكانت
تحتفظ بكافة معلوماتها ، وسائر نفسها ، وعباراتها المتقطعة والحادة ،
وأحياناً كانت تكرر لما سمعته من غيرها ، ومعتقداتها وطريقتها
في التعبير ، وحتى حركاتها . « خالة أخرى » كان أخوتها يهتفون وليس
دائماً عن رضى . وكانت تحتفظ بسجل الأخرى وكتزها ، ومفتاح
الأدراج السرية التي خرجت منها بلحمها ودمها . وظلت تحتفظ الى
جانب لعبتها التي كانت لها أيام صغرها ، بلعبة (تولا) وبعض
الرسائل ، وكتاب الأدعية والصلوات اللذين كانا (لدون بريميتيفو) .
كما كانت هي من بين جميع أفراد العائلة التي تحفظ غيباً ما قاله وما
فعله أسلافهم . عن (دون بريميتيفو) الذي لم يكن دمها من دمه ،
عن أم (راميرو) الأول ، عن (روزا) . عن أمها هي (مانولا)
ربيبة الملجأ – هذه لم تترك الا قولاً ولا عملاً ، وانما صمت وأهواء .
كانت هي التاريخ البيتي . بهذه تمتد أبدية العائلة الروحية . هي ورثت
روح هذه ممثلة روحياً (بتولا) .

وراثه ؟ في قفير النحل تنتقل الروح ، روح النحل ، وتقاليده ،
وفن صناعة العسل ، والخلية عن طريق الوراثة . غريزة النحل ، ولا

تنتقل عن طريق اللحم والمجاجة . والحسية تخلد بواسطة العاسيب والملكات . ولكن هذه لا تعمل أبدا . ولا تحسن صناعة الخلية ولا جني العسل أو العناية باليرقات . وما دامت لا تعرف ذلك فأنها لا تستطيع نقل هذه المعرفة عن طريق اللحم والمجاجة الى صغارها . تقاليد النحل الفنية سواء صنع العسل أو الخلايا أو الشمع هي أشياء جانبية ولا تنتقل عن طريق اللحم . وإنما بواسطة النفس . والفضل فيها للخالات ، للنحل التي لا تلحق البيض ولا تضعه . كل هذا كانت تعرفه (مانوليتا) ، علمتها اياه (تولا) التي استرعت انتباهها منذ الصغر حياة النحل ودرستها وأطالت التفكير فيها ، وحتى أنها حلمت أحلاماً عنها . ومن الكلمات ذات المغزى الصميمي التي تعلمتها من الحالة ، وكانت من حين لآخر تطلقها على أخوتها عندما كان يدو منهم ما يدل على المذكوره كلمة هي : « صه ياعسوب » . وكلمة يعسوب كانت تعني لديها ما كانت تعنيه لدى الحالة ، وهو معنى واسع الدلالة عميقها . معنى كان أخوتها يتكهنون به .

كان الاتحاد وثيقا بين (الفيرا) ابنة (راميرو) الأول التي كلفت (روزا) زوجته الأولى حياتها . وبين (انريكي) ابن خطيئة ذلك وابن ربيبة الملجأ . كان هذان الأخوان غير الأشقاء يجب أحدهما الآخر أكثر مما يظهر لدى أي واحد من الخمسة الآخرين . كانا على الدوام يتساران ويتهايمان فيما بينهما . وكان هذا بقلق بال (مانوليتا) اذ قد يعتبر نوعاً من الدسائس . لم يكن يؤلمها أن تبلغ المؤدة ذورتها بين من حملته أحشاء أمها وبين من حملته أحشاء أم غيرها من أخوتها . كانت تشعر ان ما من أحد من أخوتها يرغب في التقرب منها ، وكان

هذا يسرها . وكان ذلك التعلق الذي يتعدى حدود الأخوة يثير اشمئزازها .
قالت لهما ذات مرة :

— أتمنى أن يعلق أحدكما في شباك الحب . أن تكون لك أنت
خطيبة (يا انريكي) . أو أن يكون لك خطيب (يا الفيرا) .
— ولماذا ؟ — قالت هذه تسأل .

— كي تقلعا عن هذه المسيرات يتأبط احدكما ذراع الآخر في
البيت . وتتبادلان الهمس والأسرار ، ويتملق أحدكما الآخر...
— واذن يكون ما هو أكثر . — قال (انريكي) .
— وكيف هذا ؟

— لأن هذه تأتي فتبوح لي بأسرار عريسها . أليس كذلك
(يا الفيرا) ؟ وأنا أقص عليها أسرار عروسي .
— أجل . أجل ... — هتفت (الفيرا) على الفور وكأنها تصفق .
— وتضحكان معاً من العريس الآخر ، والعروس الأخرى .
أليس كذلك ؟ ... ياما أحيلاه .

— حسن ، وما عساها تقول الحالة عن هذا — قالت (الفيرا)
تسأل وقد صوبت نظرتها الى عيني (مانوليتا) .

— ستقول انه لا ينبغي اللعب بالأشياء المقدسة ، وانكما صبيان ...
— ولكن ألا ترددين مع الحالة ما ورد في الانجيل المقدس انه
ينبغي أن نكون كالأطفال كي ندخل ملكوت السماء . — قال (انريكي)
معارضاً .

— طفل . أجل . صبي . . . كلا .

— وبأي شيء يتميز الطفل عن الصبي ؟ ...

- بماذا ؟ بطريقة اللعب .
- وكيف يلعب الصبي ؟
- يلعب الصبي كالكبار . والأطفال ليسوا كالكبار سواء الرجال منهم والنساء . انهم كالملائكة . اذكر اني سمعت الخالة تقول انها سمعت بوجود لغة لا يذكر فيها الطفل ولا يؤنث ، وانما هو محايد ...
- أجل . – قال (انريكي) – أنها اللغة الألمانية . والآنسة محايدة ...
- ولكن هذه الآنسة ليست محايدة ... قالت (مانوليتا) محاولة أن تزود كلماتها بإبتسامة ، لكنها لم تنجح .
- واضح اني لست محايدة . لا يتقضي غير هذا ...
- حسن . ولكن كفى صبيانيات .
- صبيانيات كلا . ولدنات نعم . أليس كذلك ؟
- هو كذلك .
- حسن . وبماذا تعرفها ؟
- يكفي . فأنا غير راغبة في المزيد من الكلام . ولماذا ؟ لأن هنالك أشياء اذا نحن حاولنا قولها فان الغموض يكتنفها ...
- حسن ، حسن (تينا) – هتفت (الفيرا) وقد عانقتها وقبلتها – سوف لن تستائي
- صحيح ، أنت لا تستائين (يا تينا) ؟
- كلا . وأقل من ذلك اذا دعيتيني (تينا) .
- كان ذلك مني عن غير قصد .
- أعلم ذلك . وهنا يكمن الخطر . لأن القصد يأتي بعد ذلك ...

وداعب (انريكي) شقيقته ، ثم تأبط ذراع أخته الأخرى ،
أخته من الأب وذها معا .

وأضافت (مانوليتا) تقول وهي تنظر اليهما وهما ذاهبان :
صبيانيات ، فعلا صبيانيات . ولكن هل أحسنت في قول ما قاتته لهما ؟
هل أحسنت يا تحالة ؟ — كانت تستنجد فكريا بالحالة .

— القصد يأتي فيما بعد ... ألسنت أنا التي سترشدهما بتعاليمها الى
القصد الذي ينقصهما ؟ ولكن كلا . كلا . أن لا يلعبا هكذا . لأنهما
يلعبان ... أو يلهوان ... وعسى أن يظهر عريسها وعروسه .

— ٢٥ —

كان المجمع العائلي الآخر يتألف ليس من (روزيتا) (وراميرو)
وانما من (كاريداد) زوجة هذا ومن ابنة حميها . ومع ان (روزيتا)
هي التي كانت تبحث عن (كاريداد) حاملة اليها شكواها ، ومخاوفها ،
وتكهناتها ، وبوجه الأجمال كانت تأتيها شاكية . كانت تظن ،
أو على الأقل ، كانت تظهر انها تظن انها هي المحتقرة وغير المفهومه .
وتبدو حزينة منشغلة البال ، مترقية أن تسأل عما بها . وبما ان أحدا لم
يكن يسألها ، لذا كانت دائمة الألم . (ومانوليتا) التي كانت أقل
أخوتها تساؤلا عما بها ، كانت تقول : « اذا كانت تشكو من شيء
حقيقي أكثر من الرغبة في ان تذلها ، ونعني بها بصورة خاصة فذلك
مزعج » . وهذا ما كان يؤلمها .

وكانت تأتي الى (كاريداد) زوجة أخيها شاكية زوجها أي

أخاها ، وتصفه بالكبرياء . وكانت الزوجة تصغي اليها بصبر دون أن يكون لديها ما تقوله لها .

— لا أدري (يا مانولا) ما فعله بالنسبة (لروزا) ... في كل يوم تأتيني شاكية من (راميرو) وتصفه بالكبرياء والاناية والاستخفاف .

— وافقي على كلامها . وقولي لها . صحيح ما تقولين .

— ولكن كيف ؟ ألترويدا بأجنحة ؟

— كلا . ولكن كي تفصيها .

— ولكني لا أفهم . فضلا عن ذلك فهذا غير صحيح . (فراميرو)

ليس كذلك .

— أنا أعرف ذلك . أنا أعرف ذلك جيدا . أنا أعلم انه قد يكون

(لراميرو) بعض الهنات كغيره من الرجال .

— وكذلك كل امرأة .

— هذا واضح . ولكن هناته هنات رجل ...

— هيا . كاليعاسيب .

— كما تريدن . هنات (راميرو) هنات رجل ، أو ان شئت

فكاليعسوب ...

— وهناتي ؟

— هناتك أنت (يا كاريداد) ؟ هناتك هنات الملكات .

— حسن جدا . وليس الحالة ...

— ولكن هنات (راميرو) ليست كما تذكر (روزا) . فهو ليس

متكبرا أو أنانيا ، أو مستحقا .

— ولكن كيف أوافق على كلامها كما قلت ؟

– لأنك بهذا تعاكسينها . أعرف ذلك جيدا . أعرفه .
و ذات صباح اجتمع الثلاثة (كاريداد ، مانويلا ، وروزا) ،
فبدأت هذه هجومها وقالت :

– في أي ساعة من الليل يعود زوجك الى البيت ؟
وعندما كانت تتحدث الى زوجة أخيها لم تكن تقول عن
(راميرو) « أخي » وإنما زوجك .

(كاريداد) – وأي شرفي هذا ؟

(مانويلا) : وكنت آتخذ مستيقظة (يا روزا) .

(روزا) . – لقد أيقظني وصوله .

(مانويلا) . – صحيح ؟ آه ؟

(كاريداد) . – يكاد أن لا يوقظني ...

(روزا) . – يا له من هدوء .

(مانويلا) . – تمام (كاريداد) واثقة . وحسنا تفعل

(روزا) . – حسنا تفعل ؟ ... حسنا تفعل ؟ ... لست أفهم .

(مانويلا) . – ولكن أنا أفهم . ويبدو انك تسرين بهذا . في حين

هي لعبة خطيرة جدا ، وقبيحة أيضا ...

(كاريداد) . – اكراما لله (يا مانويلا) .

(روزا) . – دعني الخالة : دعني ... الخالة .

(مانويلا) . – بمثل اللهجة التي تحدثت فيها أصبحت انت الخالة

هنا ...

(روزا) . – أنا؟ أنا الخالة ؟

(مانويلا) . – أجل أنت . أنت ، أنت (ياروزا) . الي ما تعود

اثارة غيرة أختك ؟

- (كاريداد) . - ولكن (روزا) لا تقصد إثارة غيرتي (يا مانويلا) ..
- (مانويلا) . - أنا أعرف ما أقول (يا كاريداد) .
- (روزا) . - أجل ، هي هنا تعرف ما يقال ...
- (مانويلا) . - نحن هنا نعلم ما نريد أن نقول : وأنا أعلم ما أقول . أفهمت (يا روزا) ؟
- (روزا) . - تلك لازمة الخالة ...
- (مانويلا) . - ليكن . وأقول لك انك على استعداد لقبول أسوأ عريس يتقدم منك وأن تتزوجيه ليس الا لتحركه كي يثير في نفسك الغيرة لا أن تثيرها في نفسه هو ...
- (روزا) . - أنا أتزوج ، أنا أتزوج ؟ أنا عريس ؟ التزوة ...
- (مانويلا) . - أجل أنا أعرف ما تقولينه ، وان كنت لا أعرف ما تتوین ، انك سوف لن تتزوجي ، وانك لا تفكرين بالعريس ... وانك تفكرين في أن تصبحي راهبة ...
- (كاريداد) . - وكيف عرفت ذلك (يامانويلا) ؟
- (مانويلا) . - آه . أتخسبن انني لا أستطلع أسراركن ؟ بالتأكيد لأنها أسرار .
- (روزا) . - حسن ، واذا فكرت في أن أكون راهبة فماذا ؟ أي شرفي خدمة الله ؟
- (مانويلا) . - ما من شرفي خدمة الله ... ولكن اذا كنت ستدخلين سلك الراهبة فسوف لن يكون لخدمة الله ...
- (روزا) . - كلا ؟ اذن لما يكون ؟
- (مانويلا) . - كيلا تخدمى الرجال ... والنساء ...

(كاريداد) . - ولكن اكراما لله (يا مانويلا) . ما هذا الذي

تبدين ؟

(روزا) . - لها أشيأؤها ، ولي أشيائي ... ومن قال لك يا أختي

أن ليس بالأمكان خدمة الرجال في الدير ؟

(مانويلا) . - بلا شك . عن طريق الصلاة من أجلهم ...

(روزا) . - اذن الأمر واضح . بالتوسل الى الله أن يجنبهم

الغواية ...

(مانويلا) . - يبدو لي أنك في صلاتك « جنبني الغواية » أكثر

رغبة من « جنبنا الغواية » ...

(روزا) . - أنا أرجو أن لا أقع في الغواية .

(مانويلا) . - ولكن ألم تأت الى هنا لاغواء (كاريداد) أختك ؟

أم كنت تحسبين ان تلك ليست غواية . ألم تأت لتغويها ؟

(كاريداد) . - كلا . (يا مانويلا) انها لم تأت لهذا . وفضلا

عن ذلك فهي تعلم انني لست غيورة . وانني لن أكون كذلك ولا أستطيع

أن أكون ...

(روزا) . - دعيها ، دعيها (يا كاريداد) . دعي النحلة تعقص ...

دعيها تعقص ...

(مانويلا) . - يؤلم . هيه ؟ يا بنية حكلي ...

(روزا) . - بنية الآن هيه ؟

(مانويلا) . - دائما أخت .

(روزا) . - قولي لي يا أختي النحلة . ألم تفكري في وضع نفسك

في خلية من قفير ؟ ...

(مانويلا) . - قد يمكن صنع عسل وشمع في الدنيا .
(روزا) . - وعقص .
(مانويلا) . - صحيح وعقص .
(روزا) . - هيا - أجل ، أنت كالحالة (تولا) . ستصبحين
خالة ...

(مانويلا) . - أنا لا أدري ما سيكون مني . ولكن . اذا حدثت
حنو الخالة فلن أكون قد سلكت أسوأ سبيل . أو تظنين انها أخطأت
سواء سبيلها ؟ وهل نسيت تعاليمها ؟ وهل حاولت هي أن تبذر بذور
الشقاق بين أهل البيت ؟ وهل اشتكت مرة من عمل أخوتها ؟
(كاريداد) . - أستحلفك بالله (يا مانويلا) ، وبذكري الخالة
(تولا) أن تسكتي ... وأنت (يا روزا) لا تبك هكذا ... هيا ارفعي
هذا الجبين ... لاتستري وجهك بيديك ... لا تبك هكذا يا بنية .
لاتبك هكذا ...

فوضعت (مانويلا) يدها على كتف أختها لأبيها وقالت لها
بصوت كأنه قادم من العالم الخالد ، من العائلة الخالدة :
- ساحبيني يا أختاه ... فقد أسرفت ... ولكن تصرفك جرحني
في صميم العائلة ، وقد قمت بما أظن ان الخالة كانت ستقوم به في
مثل هذا الموقف ... ساحبيني .

فألقت (روزا) نفسها بين ذراعيها مخفية رأسها بين ثديي أختها
وقالت لها وهي تجهش بالبكاء :
- أنت التي يجب أن تسامح يا أختي . أنت ... أختي ... كلا ...
وانما أم ... أمي ... خالة ، خالة .

- هي الخالة ... الخالة . الخالة (تولا) التي يجب أن تسامحنا ،
وان توحدنا ، وأن تقودنا جميعا . - هكذا أنهت كلامها (مانويلا) .

۱۹۹۳/۱۰/۱۵ - ۲۰۰۰



الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٣

في الاصدار المهيبة كما يعادل

١٢. ل. ص.

سعر النسخة داخل القطر

٦. ل. ص.